

مقدمة :

بدأ النظام السياسي في روما بالحكم الملكي ، ثم تلاه الحكم الجمهوري ، فالحكم الامبراطوري . وعاشت روما في ظل النظام الجمهوري نحو خمسة قرون من الزمان (من اواخر القرن السادس الى اواخر القرن الأول ق م) . وقد درج المؤرخون على تسمية القرن الأخير من حياة الجمهورية الرومانية بـ « عصر الثورة » ، وهو القرن الذي يمتد من عام ١٣٣ ق . م . الى عام ٢٧ ق . م . وترجع هذه التسمية الى ان تلك الفترة بدأت بمحاولات اصلاح نبيلة قام بها بعض تراينة الشعب ، لكنها تحولت الى صراع عنيف مرتقب بين كبار القادة العسكريين ، ثم ما لبث هذا الصراع ان تحول الى حرب اهلية قضت على النظام الجمهوري .

وفي دراسة سابقة تناولت محاولات الاصلاح تلك^(١) ، وهي التي قام بها الشقيقان تيبيريوس وجايوس جراوكوس بين عام ١٣٣ وعام ١٢٠ ق . م . وتمثل المرحلة الأولى من مراحل عصر الثورة .

ثم في دراسة ثانية^(٢) تناولت الصراع الذي احتمد بين القائدين الكبارين ماريوس وسلا بين عام ١٢٠ وعام ٧٨ ق . م ، وهو الصراع الذي يمثل المرحلة الثانية من عصر الثورة .

الثورة الرومانية المراحل الثلاثة الصراع بين بوبي وماريوس

٧٨ - ٥٠ ق . م

محمد عواد حسين

أستاذ ورئيس قسم الحضارة سابقاً بجامعة الاسكندرية

أستاذ التاريخ الروماني سابقاً بجامعة الكويت

(١) انظر هذه الدراسة في العدد الثالث عشر من مجلة كلية الآداب والتربية - جامعة الكويت - وهي بعنوان « الثورة الرومانية ، المرحلة الاولى ، الجنرالات ومحاولات الاصلاح » من ١٢٣ وما بعدها .

(٢) انظر هذه الدراسة في العدد الخامس عشر من مجلة كلية الآداب والتربية - جامعة الكويت - وهي بعنوان « الثورة الرومانية ، المرحلة الثانية ، ماريوس وسلا » من ١٧٧ وما بعدها .

وفي هذه الدراسة التي تمثل المرحلة الثالثة وتمتد بين عام ٧٨ وعام ٥٠ ق . م^(٣) سوف نتناول الصراع بين قائدين آخرين ، هما بومبي وقيصر ، وهو الصراع الذي أدى في نهاية إلى نشوب الحرب الأهلية التي لم تبق من النظام الجمهوري إلا على اسمه فقط .

وتبقى بعد ذلك مرحلة رابعة وأخيرة ، ندرس فيها - باذن الله تعالى - تلك الحرب الأهلية التي انتهت بسقوط الجمهورية وقيام النظام الإمبراطوري .

وقد استطاع مجلس الشيوخ الروماني (السناتو) ان يحتفظ بسلطاته وسيادته طوال المرحلتين الأولى والثانية ، بل انه استطاع بفضل سلا ان يسترد ما كان قد فقده من مكانة وهيبة في خلال هاتين المرحلتين ، لكن ذلك كان مؤقتا ، لأن سلا ترك روما غارقة في خضم من المشاكل التي نجمت عن سياسة العنف والبطش التي اصطنعها تجاه الديمقراطيين او الشعبيين كما يسمون احيانا ، وتجاه الايطاليين بصفة عامة .

الأوضاع بعد سلا :

الواقع ان تاريخ روما بعد وفاة سلا أصبح عبارة عن تاريخ مجموعة صغيرة من الرجال البارزين ، الذين كانت اطماعهم ومنافساتهم هي العامل الحاسم في السياسة الرومانية ، وسبب ذلك ان السناتو ، وكذلك الجمعية القبلية ، كلاهما لم يكن يملك القوة للتحكم في تصرفات هؤلاء الرجال ، الذين أثاحت لهم احتياجات الدولة وظروفها الظرف بسلطات عسكرية مطلقة .

ولقد شهدت أيام ماريوس وسلا - في المرحلة الثانية من مراحل عصر الثورة - ظهور الجيش المحترف الذي يتحكم في قياده وحده ، فغدا مثل هذا القائد هو صاحب السلطة الحقيقة في الدولة ، ومن ثم أصبحت الانجازات العسكرية هي الأساس الوحيد للظهور بالقوة السياسية ، وبالتالي أصبح توسيع قيادة عسكرية هامة هو الهدف الأكبر لدى كل الطموحين من أصحاب الكفاءات .

وأمام خطر اندلاع الحروب الأهلية ، وكذلك خطر الحروب الخارجية ، كان السناتو يجد نفسه مضطرا لمنح السلطة العسكرية لأصحاب الكفاءة ، برغم عدم اطمئنانه إلى حقيقة نواباهم . لكن منع هذه السلطة أصبح بعد ذلك في يد الجمعية القبلية نتيجة للتفاهم الذي كان يتم بين القادة العسكريين وبعض الترابية ، ومن هنا برزت « القيادات الاستثنائية » التي تحول أصحابها سلطة تجاوز القواعد

(٣) اد مصادرنا الرئيسية عن هذه المرحلة من مراحل عصر الثورة هي ما كتبه المؤرخ بلتوارخ عن كل من بومبي وكراسوس وستوريوس ، وما جاء في خط شيشرون الذي القاما في خلال هذه الاعوام ، وما وصلنا من « تاريخ ساللورست حيث سجل تفاصيل الاحداث بين عام ٧٨ ق . م وعام ٦٧ ق . م . وكذلك ما جاء في « التاريخ الروماني » للمؤرخ ديركاسيوس عن احداث عام ٦٨ ق . م . وما نعلمه وهو يعتمد اعتمادا كبيرا على المؤرخ لبيوس

الدستورية ،^(٤) وكان اول من ظفر بقيادة استثنائية من هذا القبيل هو يومبي الكبير على نحو ما سوف نرى .

هبت العواصف من كل جانب على دستور سلا عقب وفاته ، فهو لم يفعل شيئاً ليجعل للحقوق السياسية التي منحت للياطاليين أية قيمة فعلية ، وتحفظ المجتمعات الإيطالية التي حملت السلاح ضده فحرمتها الحقوق الرومانية وصادر اراضيها ليحولها الى مستعمرات لجنده المسرحين ، تحفظت هذه المجتمعات لاسترداد ما فقدته ، وكذلك تطلع الرومان الذين فقدوا حقوقهم لاتهامهم بالاعطف على عدوه ماريوس الى استرداد حقوقهم .

اما اشياخ ماريوس من الشعبين فكانوا يتطلعون الى تحرير وظيفة التربوية من القيود التي فرضها سلا عليها ، وأما الفرسان فكانوا يريدون استعادة سيطرتهم على المحاكم التي سلخها منهم سلا وأعطتها للسناتو .

وكانت القنصلية لعام 78 ق . م قد آلت عقب اعتزال سلا الى كل من كاتولوس ولبييدوس ، وكان هذا الأخير من أسوأ النبلاء خلُقاً ، كما كان عديم الكفاية واسع الاطماع ، سار في ر CAB سلا حتى اعتزاله ، ثم انقلب عليه وانهزم فرصة التذمر العام من دستوره فأخذ يهاجم الدستور وصاحبه أثناء دعایته الانتخابية .

وسرعان ما احتمل الخلاف بين القنصليين لاختلاف طبائعهما^(٥) ، فحاول لبييدوس ان يجمع العناصر الساخطة على دستور سلا حوله كي يظفر بتائیدهم له ، فتقدم بمجموعة من مشروعات القوانين لرد الاراضي المصادر لأصحابها الإيطاليين ، واستدعاء المنفيين من اشياخ ماريوس ، والعودة الى توزيع الغلال على الفقراء ، واعادة السلطة كاملة الى ترابنة الشعب بحيث تصبح كما كانت قبل ان يقيدها سلا^(٦) . لكن زميله كاتولوس عارضه فلم يوافق السناتو الا على قانون منح الغلال للفقراء .

وأدى رفض السناتو لمشروع قانون اعادة الاراضي المصادر الى اصحابها الإيطاليين الى سخط الإيطاليين في شمال اتروريا ، فطرودا جنود سلا المسرحين من مستعمراتهم ، وبدأ واضحا انهم يقومون بثورة مسلحة ، فعهد السناتو الى القنصليين بهمة معالجة الموقف ، لكن لبييدوس انتهز الفرصة وجمع جيشا في شمال ايطاليا ، وتزعم الثوار وزحف نحو روما ، فيما كان من السناتو الا ان اصدر « قراره النهائي » باعتبار لبييدوس عدوا للوطن ، واستطاع كاتولوس - القنصل الآخر - ان يصد

A E.R Book, A History of Rome to A. D565, P.207 (٤)

App., B C ,I,105 — 106; Plut , Sulla, xxxv111 (٥)

Sallust., Hist ,I,55,22. (٦)

الثوار ، لكن السناتو ارتكب في نفس الوقت خطأً دستوريًا كبيرا ، اذ قبل المساعدة التي عرض بومبي تقديرها في هذا الظرف الدقيق ، فمنحه سلطة البروريايتور ، وخلوه قيادة جيش للقضاء على ليبيوس ، مع ان بومبي لم يكن عضوا في السناتو ، ولم يكن قد تولى منصبها عاما من قبل .

وقاد بومبي قواته وارغم مساعد ليبيوس - على التسليم ، ثم اعدمه ، وبعد ذلك اتجه الى اتروريا حيث هزم ليبيوس نفسه ، لكنه تمكّن من الفرار الى سردينيا حيث توفي ، فاتجه مساعدته الآخر بربينا من بقي من قواته الى اسبانيا حيث انضم الى سرتوريوس (٧٧ ق . م .)^(٧) الذي كان يقود هناك ثورة خطيرة ضد السناتو والنبلاء الاستقراطين .

هكذا امكن القضاء على ليبيوس ، لكن ذلك لم يتم الا بعد ان تغاضى السناتو عن مبدأ اساسي من المباديء التي اراد بها سلا دعم سلطات هذا المجلس ، ذلك ان اعضاءه وهم يريدون انقاذ الموقف بأي شكل ، ولم يترجعوا من استناد قيادة عسكرية عليا الى شاب لم يسبق له ان تولى وظيفة عامة ، وهو امر عمل سلا في دستوره على تفاصيه ، فكانت هذه الخطوة ذات اثر بالغ على السناتو ، بل لعلها كانت الاولى في تقويض دعائمه ، فما الذي حدث ؟

لقد تفاقم الوضع في اسبانيا واصبح واضحا انه لابد من ارسال نجدة عاجلة الى ميتيللوس هناك ، فانتهز بومبي الفرصة ورفض تسریح قواته وطالب السناتو بارساله لنجدته ميتيللوس ، خصوصا وان قنصلي عام ٧٧ ق م كانا يفتقران الى الكفاية العسكرية ويخشيان الهزيمة فرفضا الذهاب الى اسبانيا ، وللحروج من هذا المأزق اضطر السناتو الى الاستجابة لبومبي ، ومنحه سلطة البروقنصل ليتولى بوجبه حكم ولاية اسبانيا الدانية وقيادة القوات العسكرية فيها .

وهكذا غدا بومبي يقف على قدم المساواة مع ميتيللوس . وليس مجرد مساعد قدم لنجدته ، وهكذا ايضا ارغم السناتو على الرضوخ لمطالب بومبي المجافية للقواعد الدستورية ، وحين تسأله احد اعضائه عما اذا كان من الضروري منح بومبي سلطة البروقنصل ، قيل له ان بومبي ذاهب للقيام بعمل القنصلين معا لا بعمل قنصل واحد^(٨) . ورحل بومبي الى اسبانيا حيث واجه مهمة شاقة امام سرتوريوس الذي كان يحتل مكانة رفيعة في حزب الشعبيين الديمقراطي .

شغل سرتوريوس منصب الكوايستر عام ٩١ ق . م ، وكشف عن مهارة عسكرية فائقة في حربه ضد قبائل الكلت في ايبيريا ، حتى لقد تخوف منه سلا وبدأ يحقد عليه ، وقد رشح حاكما لاسبانيا

App., B C ,I, 107; Sallust., His½ ,I,65 — 67; Hietlannnd (٧)

Roman Tepublic, III, pp. 4 — 5; C.A.H., ix,PP. 315 — 317.

Plut., Po,p.,xii (٨)

القريبة (الدانية) لسنة ٨٢ ق . م . ، لكن سلا اسرع بارسال حاكم آخر الى هناك ، ونجح هذا الحاكم في انزال المهزيمة بانصار الحزب الديموقراطي ، فاضطر سرطوريوس الى الفرار الى شمال افريقيا ، ثم تمكن من العودة الى اسبانيا في عام ٨٠ ق . م . ليتزعم ثورة اشتعلت فيها ضد روما ، وما لبث - في عام ٧٩ ق . م . - ان هزم ميتييللوس حاكم اسبانيا القاصية (البعيدة) ، الذي كان زميلاً لسلا في القنصلية . ولم ينته عام ٧٧ ق . م . حتى كان سرطوريوس قد سيطر على كل ايبيريا تقريباً ، واعتبر نفسه حاكم اسبانيا الدانية الشرعي .

وأمام هذه الأوضاع لم ير السناتو بدا من ارسال بومبي لواجهة هذا الشائر ، فمنحه الامير يوم البروفنسية ، ليتولى حكم ولاية اسبانيا الدانية ويقود الجيش فيها ، وقد انتصر بومبي وعاد السلام الى اسبانيا ، بينما لقي سرطوريوس مصرعه وكذلك مساعديه بربنا ، وعاد بومبي الى ايطاليا عام ٧١ ق . م مزهو بنصره^(٩) .

وفي خلال السنوات التي قضتها بومبي في اسبانيا جرت احداث ومحاكمات اكذبت بما لا يدع مجالاً لأي شك فساد محلفي المحاكم وكلهم من رجال السناتو، اذ ثبت انهم يرتشون وان ضمائرهم قد ماتت تماماً ، فاشتد الهجوم عليهم ، وانتهز الفرسان هذه الفرصة لانتزاع المحاكم من أيديهم ، واستردادها لانفسهم عن طريق تقربهم الى الشعبين الديموقراطيين^(١٠) .

وفي نفس الوقت بدأت محاولة جادة وقوية لتحرير ترابنة العامة من القيود الصارمة التي كبل بها سلا سلطاتهم ، واستطاع احد قنصلي عام ٧٥ ق . م ، ان يقنع السناتو باصدار قانون يسمح للترابنة بترشيح انفسهم للوظائف العامة بعد انتهاء تربونيتهم اذا رغبوا في ذلك ، وهو الامر الذي كان سلا قد حرمه من حرماناً تاماً . وقد ظلت الجهد مستمرة بصورة متصلة لاعادة حقوق الترابنة اليهم كاملة غير منقوصة ، حتى حسمها بومبي بعد عودته من اسبانيا^(١١) .

حرب العبيد :

وأخطر من كل ذلك ، اشتعال ثورة العبيد في ايطاليا عام ٧٣ ق . م .^(١٢) ذلك ان العبيد الذين

A E.R. Book, op. cit , pp 208—209^(١)

Plut., Caes., IV, cic., Brutus, 92, 317^(١٠)

Sallust , Hist , III, 48.^(١١)

(١٢) حام الحديث عن هذه الثورة باستفادة في مصادرنا القديمة التالية :

App , B.C,116—120; Plut., Crassus VIII—XI, Plin , N H , XXXIII, 49

اما المراجع الحديثة فماها

Rice Holmes in Rom. Rep . I,PP.386 ff; C.A.H., IX PP 329—332; Hietland, ro, Rep III, PP. 10—11, 13—14 .

كانوا يستغلون بالزراعة في الضياع كانوا يعانون من اوضاع بالغة السوء على يد السادة اصحاب هذه الضياع ، وأسوأ منها كانت اوضاع العبيد المبارزين او المجالدين (Gladiatores) ، الذين كانوا يتعرضون للهلاك في اثناء مباريات المبارزة التي يقومون بها^(١٣) .

وقد بدأ هؤلاء ثورتهم بزعامة مبارز من تراقيا يدعى سبارتاكس ، واعتصموا بجبل فيزوف ، وانضم اليهم عبيد الاراضي الذين ضاقوا ذرعا بما يعانون في ضياع النساء . ونجحت حركة الثوار واخذت اعدادهم تتزايد حتى بلغوا سبعين ألفا ، واستطاعوا في نهاية عام ٧٣ ق . م . ان يسيطروا على كل جنوب ايطاليا .

وانقضى العام التالي (٧٢ ق . م) والعبيد يحرزون النصر تلو النصر على القوات الرومانية الحكومية ، حتى استطاع البرايتور كراسوس^(١٤) - بعد ان منحه السناتو قيادة استثنائية وسلطة بروقنسيلية - ان ينزل بهم هزيمتين كبيرتين ، وان يقتل زعيمهم سبارتاكس . وفي هذه الاونة كان يومبي قد انتهى من حربه ضد سرتوريوس وعاد الى ايطاليا ، فقام بدور في القضاء على هذه الثورة بالاجهاز على الذين فروا من العبيد شمالا ، وادعى لنفسه بعد ذلك انه هو الذي قضى على ثورة العبيد وراح روما منها^(١٥) .

هكذا انتهت ثورة سبارتاكس ، ولكن بعد ان تخضت عن تخريب مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية في جنوب ايطاليا ، الأمر الذي اثر تأثيرا كبيرا على الحياة الاقتصادية في ايطاليا كلها ، كما كانت بمثابة تحذير للسادة اصحاب العبيد الذين يعملون في الاراضي الزراعية ، فبدأوا يحسنون معاملتهم .

لكن النتائج السياسية لتلك الثورة كانت اخطر من ذلك بكثير ، فقد اعتنق كراسوس - بعد النصر الذي احرزه على الثوار - انه قائد عظيم له مواهبه التي ينبغي ان يفيده منها ، ذلك من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان تدخل يومبي في المرحلة الاخيرة من الثورة ، ومشاركته المحدودة في اخادها ، ثم ادعاؤه بأنه هو الذي انهى ثورة العبيد ، كل ذلك ملأ صدر كراسوس حقدا عليه ، ومن ثم بدأ العداء بينهما على نحو ما سوف نرى ، فضلا عن ان السناتو - وذلك هو الاخطر - وجد نفسه بعد الثورة امام قاديين كبيرين منتصرين ، وتحت امرة كل منها قوات كبيرة ، وكلاهما يقف بقواته على ابواب روما .

(١٣) 244—243 Hietland, Ro., Rep., II, PP.

(١٤) ذلك هل الرايتور ماركوس ليكيتيس كراسوس الذي اعاد سلا على السيطرة على ايطاليا مرهما على كمية عسكرية فائقة ، ومع ذلك ناد انصاره على العبيد جاء نتيجة لخلاف ديني صفهم .

(١٥) Boak, Rom, Hist, PP. 212—211

وفي تلك الاونة كان ملك بونتس - ميثيريداتيس الاعظم - لا يزال يمثل خطرا كبيرا على هيبة روما ومكانتها في الجناح الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، ذلك ان سلا لم يكن قد قضى عليه قضاء مبرما ، لأن الاوضاع في روما ارغمه على التعجيل بانهاء الحرب ضده والعودة اليها ليواجه اعداءه فيها ..

وتجدد خطر ميثيريداتيس في عام ٧٤ ق . م ، فعهد السناتو الى قنصلي ذلك العام بمواجهة ذلك العدو العظيم ، واسند الى احدهما قيادة القوات البرية وحكم ولايتي كيليكيا وآسيا ، كما اسند الى الثاني قيادة القوات البحرية وحكم بيثينيا ، التي كان ملكها قد اوصى بها - قبل وفاته - للشعب الروماني ، فنفذت روما وصيته وحوّلتها الى ولاية ضمن ممتلكاتها^(١٦) .

وفي عام ٧٤ ق . م ايضا اضطر السناتو الى منع البرايتور ماركوس انطونيوس سلطة بروقنسيلية غير محدودة لمحاربة القرصان الذين عاثوا فسادا في البحر المتوسط ، وسبوا كثيرا من القلق لروما ، اذ كانوا يحولون دون وصول السفن المحملة بالغلال الى موانئ ايطاليا^(١٧) وكان منح هذه السلطة الاستثنائية لانطونيوس سابقة خطيرة اتخذ منها بومبي بعد ذلك ذريعة لتحقيق اهدافه على نحو ما سوف نرى .

هكذا مضت الاحداث في روما ابان غيبة بومبي ، فكيف مضت بعد عودته ؟

مطالب بومبي وكراسوس :

وجد السناتو نفسه امام ازمة سياسية خطيرة ، فهذا قائدان متتصران ، وكلاهما يرفض تسریع قواته ليضمن انصياع المجلس لمطالبه ، وبرغم ما كان بينهما من كراهية وما يضمرون كل منها للآخر من حقد ، الا انها تفاهموا على دفن هذا الحقد وتلک الكراهيـة - مؤقتا بطبيعة الحال - وقررا التعاون معًا لتحقيق اطماعهما ، وهي اقامة موكب نصر لكل منها^(١٨) ، ثم ترشيحهما لمنصب القنصلية لعام ٧٠ ق . م .^(١٩)

وكان مطلب كراسوس الخاص بموكب النصر ، مطلبا مقبولا ومعقولا ، فهو قد اخذ ثورة العبيد الخطيرة ، وهو قد شغل منصب البرايتورية ، اما مطلب ترشيحه للقنصلية لعام ٧٠ ق . م . فكان

(١٦) App., Mitlove,7, B C., I,III,lv , Ept., 93; plut , Lacullus, V — VI.

(١٧) Plut., Ant., I وتدعي هذا القائد بالمثل في الموضع الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، ولقي هزيمة كبيرة اثناء هجومه على موقعا للتراسمة في كريت ومات هناك بعد قليل ، وغا يذكر هنا ايضا انه والد ماركوس انطونيوس عشيق كلوبانزا السابعة ملكة مصر الطالبة

(١٨) كان بومبي يطالب لنفسه موكب كبير يتنبع له دخول العاصمة في عجلة حربية ، وحول رأسه اكيليل من العار ، بينما طالب كراسوس موكب صغير بحيث يدخل روما راجلا او منططا جواره وحول رأسه اكيليل من الرمان

(١٩) Plut., Po.p , XXI — XXII, Crassus, XI — XII; App., B.C., I,121

يتناهى مع قانون سلا الخاص بتنظيم تولي الوظائف ، لأنه كان برئاسة في عام ٧٢ ق . م . وبالتالي فلا يجوز له أن يرشح نفسه للقنصلية إلا لعام ٦٩ ق . م . ولعل ادراكه لذلك هو الذي دفعه إلى التفاهم مع بومبي والاحتفاظ بقواته دون تسریع كتهديد للسناتو .

اما بالنسبة لبومبي فلم يكن يحق له اقامة موكب نصر ، اذ لم يسبق له ان شغل منصب القنصلية او البرایتوریة ، وكذلك لم يكن يحق له ان يرشح نفسه للقنصلية ، اذ لم يشغل من قبل منصب الكرايستور والبرایتور ، كما ان عمره كان يقل ستة اعوام عن السن المقررة لتولي هذا المنصب كما تقضي بذلك القواعد الدستورية .

لكن بومبي كان قد تعود الحصول على ما يريد بصرف النظر عن القواعد الدستورية ، فقد اذن له سلا باقامة موكب نصر كبير عقب انتصاره على خصوم هذا الدكتاتور دون ان يكون له حق قانوني في ذلك ، ثم ان السناتو منحه - استثناء - سلطة بروبرایتوریة للقيام بحملة في صقلية وفي افريقيا ، وسلطة بروقنسلية لمحاربة سرتوريوس ، وفي كل هذه الحملات فاز وانتصر ، فلماذا لا يسمح له بتولي القنصلية مباشرة ، وهل يقبل ان يعود - بعد كل ما وصل اليه فعلا - فيبدأ من اول السلم ويعتلي اولا .
وظيفة الكوايستور ؟

يضاف إلى ذلك ان بومبي كان يثق بقدراته على تحقيق مطالبه بفضل شعبنته الهايلة ، واستنادا إلى القوات التي لا تزال تحت أمرته ، لكن السناتو كان في حالة قلق بالغ من ناحية بومبي وما يمكن ان يعمله اذا حقق له رغباته ، وهو في نفس الوقت يشعر بعجزه التام عن الوقوف في وجه هذا القائد الطموح : فالشعبيون معه قلبا وقالبا ، وكراسوس قد حالفه وتفاهم معه ، وميتييللوس لا يزال في اسبانيا ، ولوكلولوس منهمك في الحرب الثالثة ضد ميريداتيس^(٢٠) .

ومع كل ذلك فقد تظاهر السناتو بمظهر القوة ورفض ترشيح القائدين لمنصب القنصلية ، فيما كان من بومبي - الذي استبعد استخدام القوة العسكرية حينذاك - الا ان جأ الى العامة فألهب حاسهم وثار نفوسهم ، اذ نادى بضرورة اعادة سلطات التربابة الشعبين اليهم كاملة غير منقوصة^(٢١) ، كما جأ فكسب ودهم وتأييدهم اذ وعدهم باعادة النظر في نظام تشكيل هيئات المحلفين ، وكانوا يتطلعون الى العودة لهذه الهيئات بعد ان انتزعوها منهم سلا^(٢٢) .

R. Holmes, Ro., Rep., I, P.390; C.A.H., IX pp.332 ff.; Hietland, Ro., Rep, III, pp.13 ff. (٢٠)

Plut., Po,p., XXI; App , B.C., I,121 (٢١)

Cic., I, in Verr., I, 15,45 (٢٢)

هكذا ضمن بومبي تأييد عامة الشعب كما ضمن تأييد طبقة الفرسان ، وامام هذه الاوضاع ، ومع بقاء قوات هذا القائد وزميله كراسوس تحت امرتها ، رضخ السناتو لطالبيها ، فرشحا لمنصب القنصلية لعام ٧٠ ق . م . ثم ظفرا بها^(٢٣) ، فكان ذلك خرقا واضحا للدستور سلا الذي حاول منع الجيش من التدخل في الحياة السياسية الرومانية ، كما كان مثلا يمكن ان يحذيه قادة آخرون ، وهذا يعني ان حربا اهلية يمكن ان تشتعل في اي وقت ، وان النظام الجمهوري كله بات على وشك الانهيار .

وما لبث القنصلان ان ردا الجميل للعامة وللفرسان ، فقد استدرا تشعريا يعيد الى ترابته الشعب سلطاتهم كاملة ، وفي مقدمتها سلطة الاعتراض^(٢٤) ، كما استصدرا تشعريا آخر يقضي باختيار هيئات المحففين في المحاكم من بين رجال السناتو ورجال طبقة الفرسان وتربتها الخزانة العامة^(٢٥) .

كذلك أعيد منصب الرقباء (Censores) الذي كان سلا قد عطله ، فظل شاغرا من عام ٨٥ ق . م الى عام ٧١ ق . م ، وقام هؤلاء بهمتهم على الفور ، فراجعوا قوائم اعضاء السناتو واستبعدوا منها اربعة وستين اسماء ، كما قاموا بتسجيل أسماء المواطنين الجدد في جميع القبائل الرومانية ، وفي الوحدات المثلية .

وهكذا قوض بومبي - تلميذ سلا - دستور استاذة تقوياضا شاملا ، ولا يعني ذلك أن الجمهورية الرومانية باتت تنعم بالديمقراطية ، وإنما اخذت تمضي قدما نحو نهايتها المحتملة على نحو ما سوف نرى .

وحين انتهى عام القنصلية بالنسبة لبومبي وزميله كراسوس آثار التريث والانتظار حتى تجبن لكل منها فرصة مناسبة تتيح له الظفر بسلطة تناسب اطماعه .

بومبي والقراصنة :

وقد سُنحت الفرصة المرتقبة لبومبي حين تفاقم خطر القرصنة في البحر الابيض المتوسط بعد فشل الحملات التي وجهت ضدهم في اعوام ١٠٢ ق . م و ٧٧ ق . م . و ٧٤ ق . م ، وتزايد نشاطهم تزايدا كبيرا ، فأصبح وصول القمح الى روما مهددا ، فارتقت اسعاره ارتفاعا فاحشا ، وبالتالي عم السخط واحد الناس يطالبون بالتصدي لاعمال القرصنة والقضاء على القرصنة^(٢٦) .

Plut., pom., XXII (٢٣)

^{٢٤} Plut., Pomp., loc., cit., Lib., Ept., Loc. Cit., Liv., Ept., 97

وكان تربة الحرارة العامة يملؤون في الاصل سيارة في القوات المسلحة ، ثم أصبحوا يشكلون طبقة ثلث طبقة Cic., ad Att., I, 16, 3, Liv., Ept., Loc. Cit. (٢٥)

الفرسان من حيث الصعب المالي ، وطبعي ان مصالحهم كانت متوقعة مع مصالح طفة الفرسان اكثر منها مع طفة الساتر .

Plut., Pomp. XXIV — XXV, 1; Dio Cass. XXXVI 20 — 23 (٢٦)

وفي اواخر عام ٦٨ ق . م غدت هذه المشكلة هي الشغل الشاغل للروماني جميعاً ما دفع جابينيوس - وهو احد ترابة عام ٦٧ ق . م - الى التقدم بمشروع قانون يقضي باسناد مهمة القضاء على القرصنة الى بروقنصل (قنصل سابق) مع منحه سلطات واسعة لم يسبق لها مثيل^(٢٧) . ولم يقترح جابينيوس في مشروع قانونه اسماء القنائل السابقين لاسناد المهمة اليه ، لكن كان واضحاً تماماً للستانتو ان يومبي هو المقصود بالذات ، وقد ايد العامة والفرسان مشروع القانون ، لكنه ووجه من الارستقراطيين النبلاء بمعارضة شديدة. غير ان هذا التأييد الشعبي الكاسح مع تأييد شديد من جانب شيشرون ، وشاب نبيل آخر كان يبحث لنفسه عن مكان في الميدان السياسي ، ونعني به يوليوس قيصر ، كل اولئك كان كافياً ليحني السناتورأسه ويرضخ لامر الواقع ويصدر قراره بالموافقة^(٢٨) .

ولقد يقال ان هذا القانون كان من نفس طراز القانون الذي صدر في عام ٧٤ ق . م ومنح انطونيوس بمقتضاه سلطة بروقصلية غير محدودة لمحاربة القرصان ، لكننا نرى الفرق بين القانونين كبير ، فقد منحت يومبي في عام ٦٧ ق . م . سلطات وموارد وقوات تفوق كثيراً ما منح لانطونيوس ، فقد اسندوا لرجل واحد - هو يومبي - من السلطات والوسائل والاموال ما يكفي للسيطرة على العالم كله تقريباً كما قال احد المؤرخين القدماء^(٢٩) . وفي وسعنا ان نعتبر قانون جابينيوس هذا ضربة قاضية وجهت الى السناتو ، وخطوة حاسمة في طريق دك دعائم النظام الجمهوري والتمهيد لقيام حكم الفرد الواحد .

واسرع يومبي لتنفيذ المهمة التي اوكلت اليه^(٣٠) ، ويرغم انه لم يستخدم الا بعض القوات التي

(٢٧) كان مشروع القانون ينص على تكليف بروقنصل واحد القيام بالمهمة على ان يتمتع سلطاته ثلاثة ثالث سوات ، يكون في حلالها صاحب السلطة العليا في البحر المتوسط كله ، مع منح كذلك سلطة كسلطة حكام الولايات الساحلية لمدة تزيد حين ميلاً من البحر ، ويوضع تحت تصرفه مبلغ صمم من المال واستطاع يضم مائتي سفينة واي عدد من المقاتلين والبحارة يراها هو ضروريها ، ودوق كل ذلك حسنة عشر مساعدعاً لبروبورياتور

(cf. Cio Cass., XXVI, 23; Plut., Pomp., XXV, 2—3)

(Plut. Po.p., XXV, 3; Boak, Hist. Rome, p.215)

ويقول بلورتاريوس ان يوليوس قيصر كان هو الرجيد من بين اعضاء السناتور الذي ايد المشروع ، لا حتى يومبي ، واما رغبة في اكتساب ود الشعب الذي اندى حاسماً مقطوع النظير للمشروع ، وربما ايضاً رغبة في التقرب من يومبي ، وذلك امر يعيه على تحقيق اطماعه وقطعاته المستقلة . وقد حاول السناتور تحير احد التراثة - وهو لوكيوس تربيليوس - لمعارضة المشروع حين عرضه على الجمعية القليلة فاستجاب لهذا المطلب ، لكن صاحب المشروع طلب من الجمعية عزل رميه من منصبه (كما فعل تيريليوس مع رميه من قبل) مما كان من هذا الرهيل الا ان سحب اعتراضه ، فأقرت الجمعية المشروع واصبح قانوناً واجب المعاشر ، واستدلتقيادة يومبي ، بل انها استحدثت لطلبه مرادت عدد من اسطوله الى

خمسة سفين ، كما زادت عدد مساثنه الى مائة وعشرين بما وعدد فرسانه الى خمسة الاف ، وعدد مساعديه الى اربعة وعشرين مساعدعاً

(cf. Cio Cass., XXXVIm 24—36; Plut., XXV, 4—7)

G. Velleius Paterculus, rom. Hist., II, 31,2 (٢٩)

(٣٠) يقال انه محرك صدور قانون جابينيوس واسعاد مهمة تطهير البحر المتوسط من القرصنة الى يومبي ، هبطت على المور اسعار القمح في روما مع انه لم يكن قد بدأ في قتالهم ، وهذا يدل على مدى النفة الكبيرة التي كان يومبي يتعنت بها عند الرومان (cf. Plut., Pomp., XXVI, 2.)

وضعت تحت أمرته ، الا انه استطاع ان يظهر البحر من القراءنة في مدي ثلاثة اشهر فقط . ولعل نجاح بومبي الى هذا المدى كان راجعا - ولو جزئيا - الى اعتداله في معاملة اسراء من القراءنة الى درجة ان الكثرين منهم سلموا له تسليما ، وارشدوه الى مخابيء اخوانهم المختفين ، فما كان منه الا ان عفا عنهم ، ومنحهم حرية لهم باعمار بعض المدن التي يقل فيها عدد السكان ، وهكذا هيأ لهم سبيل العيش الشريف حتى يضمن عدم عودتهم الى القراءنة ثانية^(٣١) .

اسناد الحرب في آسيا الى بومبي :

حين انتهى بومبي من حرب القرصان لم تكن المدة التي نص عليها قانون جاينيروس قد انتهت (ثلاثة اعوام) ، فاستقر - وقواته كلها تحت امرته - في كيليكيا يتطلع الى خوض حرب اخرى يحرز فيها نصرا جديدا . وكان لوكوللوس عاجزا عن انتهاء الحرب التي كلف بقيادتها ضد مثيريداتيس ، فسعى بومبي الى تولي قيادة هذه الحرب بدلا منه ، وكان الرأي العام في روما يميل الى ذلك ، فقدم الترزيون جايوس مانيليوس في عام ٦٦ ق . م ، - مستغلا فرصة السخط على لوكوللوس و ساعيا الى التقرب من بومبي - ي مشروع قانون يقضي بأسناد حكم ولايات آسيا وكيليكيا وبيشينا الى بومبي ، وكذلك اسناد قيادة الحرب في آسيا اليه ، وتكتليفه حل المشاكل التي تعاني منها روما في الشرق ، وذلك كله مع احتفاظه بالسلطات التي خوطها اياه قانون جاينيروس . وعرض المشروع على السناتو فعارضه زعيمه كاتوللوس وبعض اعضائه البارزين ، لكن المشروع عرض على الجمعية القبلية فوافقت عليه^(٣٢) .

هكذا منح بومبي سلطات لم يحدث ان منحت لغيره من قبل ، ولقد كان في وسعه ان يصبح وحده سيد العالم الروماني حينذاك ، لكنه فوت الفرصة على نفسه ، وان كان قد اعطى قبض درسا لكي لا يفوت مثلها حين تسع له .

وتولى بومبي القيادة من لوكوللوس ، وعمل منذ اللحظة الاولى على الوصول الى نتيجة حاسمة فتحالف مع ملك بارثيا ، ودخل في مفاوضات مع الملك مثيريداتيس ليشن حركته ويوقف نشاطه ، لكن هذه المفاوضات قطعت سريعا اذ تقدم بومبي بشروط لا يمكن قبولها . ودارت رحى القتال في عام ٦٦ ق . م ، وانتصر بومبي ، واضطرب مثيريداتيس الى الفرار الى ارمانيا التي مالبث ان هرب منها هي

(٣١) لمزيد من المعلومات عن حرب بومبي ضد القراءنة ، انظر .

App., Omith, XIV, 94—96; Plut., Pomp., XXVI, 3—XXIX, Liv., Ept., 99; Dio Cass; XXXVI, 18—19

Cic., pro lege Mamilia; Plut., Pomp., XXX; App., Mith., 97. (٣٢)

وكان شيشرون وقىصر من ابرز مؤيدي قانون مانيليوس هذا

الاخرى الى المدن الاغريقية في القرم ، بينما التقى بومبي بملك ارمينيا - تيجرانس - الذي سلم له دون قيد او شرط فأبقياه بومبي على عرشه كحليف لروما .

وفي ربيع عام ٦٤ ق . م . وضع بومبي تسوية مؤقتة للاووضع في آسيا الصغرى ، واستقبل وهو في بونتس بعثة اوفدها اليه ميشريداتيس الذي كان قدتمكن من استعادة ممتلكاته الشمالية حول البحر الاسود ، وطلبت البعثة استرداد بونتس نظير الاعتراف بالسيادة الرومانية ، لكن المفاوضات لم يكتب لها النجاح ، فترك بومبي لاسطوله مهمة تشديد الحصار حول ميشريداتيس واتجه هو الى سوريا التي قرر ضمها الى الممتلكات الرومانية كي يستطيع تسوية اوضاع الشرق كلها ، وقد نجح في تحويلها الى ولاية رومانية ، كما نجح في بسط السيادة الرومانية على غرب آسيا ، اذ تدخل في الصراع الذي احتدم بين المتنافسين على عرش جودايا من كبار كهنة بيت المقدس ، وبعد حملة قصيرة عين كاهنا اكبر في بيت المقدس وولاه حكم جودايا . اما ميشريداتيس فقد قتله جنده الذين ثاروا عليه بزعامة ابنه المدعو نارناكيس (عام ٦٣ ق . م .) وهكذا انتهت متابعة روما من هذا الملك الطموح ، وآن لها ان تستريح بعد ان لقيت منه اشد العناء^(٣٣) .

ونظم بومبي الاوضاع في هذه الولايات الجديدة التي ضمها الى ممتلكات روما في الشرق ، فوضع لها دساتير خاصة ، ونشر في ارجائها الحضارة الاغريقية باقامة العديد من المدن الحرة ، وشجع الادارات المحلية على النهوض بأعبائها ، واستطاع ان يأتي للخزانة الرومانية ببالغ ضخمة هائلة بفضل الضرائب التي فرضها هناك ، وتعويضات الحرب التي جمعها من المقهورين^(٣٤) .

بيد اننا ينبغي الا ننسى ان هذه الاجماد العريضة اما كانت لفرد واحد ، ولقد كشفت هذه الحروب التي خاضها بومبي عن عجز السناتو التام عن مواجهة رغبات القادة الكبار ، وفي نفس الوقت لم تكن الجمعيات الشعبية قادرة على القيام بدور السناتو في القبض على زمام الامور وتوجيه سياسة الدولة . فماذا كانت النتيجة ؟ كانت طغيان الفرد القادر الذي يتحكم في قوات عسكرية كبيرة ، وبالتالي دك دعائم النظام الجمهوري ولعلنا لا نكون مسرفين اذا قلنا ان قيادة بومبي في الشرق والانتصارات التي احرزها هناك كانت نقطة التحول من النظام الجمهوري الى نظام حكم الفرد الواحد ، او هي بداية هذا التحول .

Boak., Hist. Ro., pp. 216—217 (٣٣)

(٣٤) عن تنظيمات بومبي في الشرق راجع المصادر الآتية .

Plut , Pomp., XXXVIII—XLII, App., Mith., 114—115; Dio Cass , XXXVII,. 7.

وانظر المراجع التالية .

C.A.H. IX, pp. 390—396; Jones, Cities East. Rom. Emp., pp. 157 ff., pp 202 ff., T. Frank, Roman Imperialism, pp. 323 ff.

ويعد ان انتهى يومي من عملية تنظيم الاوضاع في آسيا الصغرى وسوريا وفي الممتلكات الشرقية بوجه عام ، بدأ يجهز نفسه لعودة ظافرة الى ايطاليا بقواته المتصرفة ومعه غنائم الحرب التي ظفر بها من الشرق ، وينبغي ان نذكر هنا شيئاً عن تطورات الاحداث في روما اثناء غيابه عنها التي طالت بضع سنين .

الواقع ان السلطات الاستثنائية الواسعة التي خوّلها يومي قانون جابينيوس لحرب القرصنة وقانون مانيليوس لحرب مثيري دايس ، جعلت مصير النظام الجمهوري معلقاً بما يتوليه هذا القائد ، بصرف النظر عن السناتو والجمعيات الشعبية وما يصدر عنها من قرارات ، لقد أصبح الامر كلّه معلقاً بالقوة وحده السيف ، وبنوايا الرجل الذي يملكونها .

واشتد الصراع اثناء غيبة يومي وبات الجميع في خوف من ان يترسم هذا القائد خطى استاذه سلا ، ولا سيما انيهار النظام الجمهوري ، وعلى رأسهم شيشيرون وكاثو . وكان الاخيار النبلاء يتمسكون بالنظام الجمهوري اشد التمسك ويريدون البقاء عليه ، وهذا فقد اتجه شيشيرون - وهو من طبقة الفرسان - الى حزب الاخيار ، وحاول ان يقيم وفاقاً بينهم وبين الفرسان (Concordia Ordinu) مؤملاً ان يكون هذا الوفاق كفيلاً بالذود عن النظام الجمهوري .

محاولات النيل من يومي في غيابه :

ولما كان رجال السناتو في قلق شديد من يومي ونواياه ، فقد انتهزوا فرصة غيابه في الشرق وكانت الاتهامات لانصاره من ترابته العامة ، واو لهم كورنيليوس احد ترابته عام ٦٧ ق . م . الذي اتهموه بالخيانة العظمى وقدموه للمحاكمة في عام ٦٦ ق . م ، لكن شيشيرون وقف الى جانبه وتولى الدفاع عنه فظفر بالبراءة^(٣٥) . وثانيهم جابينيوس صاحب القانون الذي خوّل يومي سلطة القيادة ضد القرصنة ، والذي احسن بما يديره له الاخيار الاستقراطيون من اتهامات فرجل عن ايطاليا والتوجه الى يومي في الشرق . وأما الثالث فكان مانيليوس صاحب قانون اسناد قيادة الحرب في آسيا الى يومي بدلاً من لوكوللوس ، وقد حوكم هذا بتهمة الخيانة العظمى وادين فعلاً في عام ٦٥ ق . م .^(٣٦) .

اما اكبر نصير للديمقراطين الشعبيين اثناء غيبة يومي ، فكان كراسوس الذي زامله في قصلية عام ٧٠ ق . م . كما ذكرنا ، ومع ذلك فقد امتلاك كراسوس حقداً على يومي بسبب هذه الامجاد العسكرية التي ظفر بها والمكانة الرفيعة التي وصل اليها ، فبذل كل ما في وسعه لجمع الانصار من حوله ، وبدأ

Cic , pro Corn. (٣٥)

Dio Cass., XXXVi, 44, 1 — 2; Plut , Cic , IX (٣٦)

يدبر الامر لتوطيد مركزه في روما مستعينا بعدد من المؤيدين الذين كانوا على استعداد للوقوف معه في وجه بومبي ، وكان على رأس هؤلاء يوليوس قيصر^(٣٧) الذي كان يأمل ان يهيء له تعاونه مع كراسوس فرصة جيدة لبناء مستقبله السياسي .

وقد انتخب كراسوس لمنصب الرقيب (Censor) لعام ٦٥ ق . م . فأوزع الى احد ترابته العامة ان يتقدم بمشروع قانون يقضي بضم مصر وتحويلها الى ولاية رومانية على ان يكلف قيصر بهمة تنظيمها بعد ضمها^(٣٨) .

ولاشك أن هدف كراسوس من ضم مصر كان اتخاذها قاعدة عسكرية ضد بومبي عند الضرورة ، ولا شك ايضا ان الفرسان رحبوا بهذا المشروع لانه يفتح امامهم سوقا يحصلون منه على ثروة طائلة ، كما اراد الشعبيون لأنه يضمن لهم موردا يدهم بكل ما يحتاجون اليه من الغلال ، لكن المشروع لونفذ فإنه يحرم الارستقراطيين النبلاء من رشاوي ملك مصر حينذاك وهو بطليموس الزمار ، الذي لم يعترض به السناتو ملكا على مصر مع انه كان قد ارتقى عرشه في عام ٨٠ ق . م . فلنجا الى شراء ذمم اعضائه الجشعين بالرشاوي الضخمة التي كان يفترضها من الرأسماليين وهم من كبار رجال طبقة الفرسان ، واستطاع السناتو ان يقنع كاتوللوس زميل كراسوس في الكنسورية بالاعتراض على المشروع فاستجاب لهم ، وقام شيшиرون بدور كبير في المعارضة ، فألقى ضد المشروع خطبة قوية في السناتو^(٣٩) . وهكذا وقف النبلاء مع الفرسان صفا واحدا ضد كراسوس ومشروعه فرفض .

لكن كراسوس - بعد ان مني بهذا الفشل - حاول ان يفيد من ناحية اخرى للوصول الى هدفه ، ذلك ان روما آنذاك كانت تعاني كثيرا من الذين صودرت ممتلكاتهم باوامر الدكتاتور سلا - بوصفهم من انصار غريمه ماريوس ، ومن الذين استبعد الكنسوران في عام ٧٠ ق . م . أسماءهم من قوائم مجلس السناتو ، وكان المدعوكاتيلينا ابرز هؤلاء على الاطلاق ، وهو سليل اسرة شريفة لكنه اشتهر بفساد اخلاقه واساليبه المعوجة ، وبرغم ذلك فقد وصل الى منصب البرايتور عام ٦٨ ق . م . ثم عين حاكما

(٣٧) لم يكن قيصر قد برر شخصية سياسية لها قدرها بعد ، لكنه اخذ يشق طريقه الى سرج السياسة بخطى سريعة ثائة . ولد حوالي عام ١٠٠ ق . م من اسرة شريرة ، وكان ماريوس قد تزوج من عمه ، بينما تزوج مونيكا من كوريليا انة ركنا ، مدفوعا بذلك الى الانحياز لحزن الشعبيين ، وقد امره سلا بالانصال عن روما وعاد الى روما . وقد وقع اسيرا في قصبة القرصان وهي الشرق بين عامي ٨٠ و٧٨ ق . م فاتنقى نفسه بعذبة فحمة وبعد وفاة سلا عاد الى روما وانتخب لمنصب الكوايسنور عام ٦٩ ق . م وانضم الى كراسوس ليقف معه في وجه بومبي وفي عام ٦٥ ق . م تولى منصب الابديليه فاحتذت العامة الي بدح الشديد وبالتأدب الفاخرة التي كان يقتفيها لعم ، وقد اضطر بسب اسرافه الشديد الى الاستدانة من كراسوس الذي حالمه . وحاول الخليمان بعد ذلك تعيين قيصر في منصب يقتفي بفضله ثروة كبيرة تعييه على سداد ديوبه

Cf. Oxford Class Diction., pp 153—154., Cix., de Leg., II, 22,26;Plut., Caes., V, 6

Plut , Cress., XIII. (٣٨)

Cic., De Tege Alexandrino (٣٩)

على ولاية افريقيا عام ٦٧ ق . م . وفي عام ٦٥ رشح نفسه لمنصب القنصلية غير انه اتهم بابتزاز الاموال من اهالي ولايته^(٤٠) فاستبعد من قائمة المرشحين للمنصب ، فامتلاّت نفسه بأشد الحقد وابكر الغيط وقرر الانتقام لنفسه .

واتفق كاتيلينا مع القنصلين اللذين ظفرا بالمنصب ، ثم استبعدا لادانتهما بالرشوة على اغتيال القنصلين اللذين اختيروا بدلاً منها ، ثم الاستيلاء على مقايلد الحكم في اليوم الاول من شهر يناير عام ٦٥^(٤١) لكن السناتو احس بهذه المؤامرة واستطاع ان يحبطها قبل تنفيذها^(٤٢) .

وإذا كان كراسوس لم يشتراك في هذه المؤامرة ، الا انه عمل على الافادة منها بحماية المتأمرين من المحاكمة ، ثم بتخديرهم لخدمته نظير ذلك ، فلم تجر اية حاكمة او تحقيق مع المتأمرين ، بل ان احدهم - وهو بيسو - عين حاكما على ولاية اسبانيا الدانية برتبة بروبرياتور ، وذلك من باب اتخاذ الخطة ضد نوايا يومي حين عودته ، اذ يمكن اتخاذ هذه الولايات قاعدة عسكرية خارجية للافادة منها عند الضرورة ، لكن احد الاسبان ما لبث ان اغتال بيسو لسوء خلقه وسوء تصرفاته^(٤٣) .

ويعد حصول كاتيلينا على البراءة من تهمة ابتزاز الاموال التي وجهت اليه ، عاد فرشح نفسه لقنصلية عام ٦٣ ق . ، وقام كراسوس بتمويل حملته الانتخابية وكذلك حملة زميله المرشح الآخر وهو جايوس أنطونيوس ، وقام قصر بدور كبير في تأييد كلا المرشحين ، لانه لا هو ولا كراسوس كانوا يستطيعان ترشيح نفسها للقنصلية حينذاك ، فهذا الاخير لم يكن قد قضى السیوایات العشر التي ينبغي ان تنتهي على توليه القنصلية الاولى في عام ٧٠ ق . م ، واما قصر فلم يكن قد تولى بعد وظيفة البرایتور التي تؤهلة للترشح لوظيفة القنصلية ، ثم انها كانا - حينذاك أيضا - لا يملكان القوة العسكرية التي يستندان اليها اذا فكرا في خرق حرمة القانون ، فمن الافضل لهم في هذه المرحلة ان يعيننا كانيلينا وزميله أنطونيوس على الظفر بالقنصلية ليصبحا من بعد أداؤه في قبضتها ، تعينهما على تسخير كل امكانيات الدولة للوقوف في وجه يومي .

اما المرشح الثالث فكان شيشرون الذي أثبت كفائه حين كان كوانستورا ثم بريتورا ، وكانت تؤيده طبقة الفرسان التي ينتمي اليها ، ولم يكن يعييه - في نظر الرومان - الا أنه كان « رجلاً جديداً » لم يسبق لأحد من رجال عشيرته ان تولى منصب القنصلية .

(٤٠) حصل كاتيلينا على البراءة من هذه التهمة لكن بعد موافاة الاولى

Sallust., B.C., XVII—XVIII

(٤١) تعرف هذه المؤامرة باسم مؤامرة كاتيلينا الأولى

Xallust., Loc. cit., XIX, 3

وقد أسرف كاتيلينا في توزيع الرشاوى السخية للظفر بالمنصب ، بل انه تبجح فكان يوزعها علانية في غير حياء ، وادي مسلكه هذا الى عزوف الكثيرين من أعضاء السناتور عن تأييده ، فضلاً عن احساسهم بان كراسوس وقيصر يؤيدانه ، وكلامها يمثل خطرًا جسيماً على النظام الجمهوري لا يقل عن خطر يومي ، وانتهز شيشيريون هذه الفرصة فاستغلها لصالحه وألقى خطبة من خطبه النارية ضد كاتيلينا الذي ارتكب أبغض الجرائم أيام الدكتاتور سلا . (٤٤)

وأجريت الانتخابات ففاز كل من شيشيريون وانطونيوس بمنصب القنصلية بينما فشل كاتيلينا ، وبرغم ان نجاح انطونيوس جاء نتيجة للمساعدة التي بذلها له كراسوس وقيصر ، الا ان شيشيريون استطاع ان يجذب زميلاً الى صفه ويبعده عن أن يتحول الى أداة في يد كراسوس وقيصر ، اذ وعده بالتنازل له عن ولايته (مقدونيا) في نهاية عام تنصليتها ، وأن يأخذ هو ولایة بلاد الغال جنوب الالب التي جاءت من نصيب انطونيوس ، وهي ولایة فقيرة لا تعود على حاكمها بنفع يذكر ، وبذلك شريطة الامتناع عن المشاكسة والسير في ركاب المعارضة .

وهكذا ذهبت محاولات كراسوس وقيصر في السيطرة على القنصلين هباء ، برغم كل مبذلاه من جهد ، وكل ما أنفق كراسوس من اموال .

ولم يتأس كراسوس وزميله قيصر ، واغافكرا في أمر آخر يرفع قدرهما ويعلی مكانتها في روما ويعينها على الوقوف في وجه يومي ، ذلك ان كراسوس جآ الى أحد ترابته عام ٦٣ ق . م وهو المدعى سرقيليوس روللوس ، واقنعه بالتقدم بمشروع قانون يقضي بتوزيع اقطاعات من الاراضي الزراعية في ايطاليا على فقراء الرومان مع منحهم الحق في توريثها لأبنائهم دون الحق في بيعها للغير ، وفعلاً تقدم روللوس بهذا المشروع في الأيام الأخيرة من ديسمبر عام ٦٤ ق . م (عقب اعتلاء المنصب في العاشر من ديسمبر) قبل ان يعتلي شيشيريون وزميله منصبيها في الأول من يناير عام ٦٣ ق . م .

والمشروع في ظاهره لاغبار عليه اطلاقاً ، بل هو يؤدي الى اصلاح اقتصادي واجتماعي كبير . فلسوف يخفف عبء الحياة عن الذين صودرت ممتلكاتهم أيام سلا ، ولسوف يزدهر الريف بالنازحين اليه ، ولسوف تختلص روما - جزئياً على الأقل - من ازدحامها الشديد . . . ولكن من أين الاراضي التي توزعها الدولة على الفقراء ؟ ان ما تبقى من الاراضي العامة يقل كثيراً عن المساحات اللازمة ، وهذا فقد رأى مقدم المشروع النص فيه على ان تقوم الدولة بشراء ما تحتاج اليه من الاراضي الخاصة

(٤٤) Cic., Oratio in Toga Candida.

ومنها خطبة بالتورجا اليهاء ، وذلك لأن شيشيريون القاما وهو يرتدي الترجا (الرداء القومي الروماني) اليهاء التي يرتديها المرشحون للوظائف العامة ، والواقع ان ما وصلنا من هذه الخطبة لا يعنينا بعض شترات قبلة .

لتقسيمها إلى اقطاعات ثم توزيعها ، كما نص فيه أيضاً على وسائل تمويل عملية الشراء هذه وعلى أسلوب التنفيذ . فقد جاء فيه أن تقوم الدولة بشراء كل الأراضي التي آلت إليها في الخارج منذ كان سلاً قنصلاً في عام ٨٨ ق. م ، وتحول المشروع القائمين على تنفيذه - إذا تعذر بيع كل الممتلكات الخارجية - فرض ضرائب أو إيجارات على الأراضي التي لاتباع ، ثم اقترح صاحب المشروع فوق ذلك كله أن تضاف إلى ميزانيته كل الأموال التي غنمها بومبي من فتوحاته .

وأوكلت مهمة التنفيذ إلى لجنة مؤلفة من عشرة أفراد ، على أن يتمتعوا طوال خمس سنوات بسلطة بروبراتورية لفض أي نزاع يثار حول ملكية الأراضي .

وبعد ، فإن كل هذا الذي تضمنه القانون ، يكشف بوضوح حقيقة توايا مقدمه ، أو الذين دفعوه إلى تقديمه : فقد أريد له أن يصبح نacula في شهر يناير عام ٦٣ ق. م . فلماذا هذه العجلة الشديدة التي لا مبرر لها ؟ ثم لماذا تمنع اللجنة التنفيذية العشرية هذه السلطات الواسعة طيلة أعوام خمسة مع منحها هذه الموارد المائلة ؟

لسوف يعود بومبي من الشرق عنها قريب ومعه قرابة أربعين ألف جندي ، ولن يجد بعد تنفيذ المشروع أية مساحات من الأراضي لتوزيعها عليهم ، فواضح إذاً أن تقديم هذا المشروع ومحاولة تنفيذه بهذه السرعة ، كان محاولة جديدة من كراسوس وقيصر للظفر بمزيد من التأييد والقوة داخل روما قبل أن يعود إليها بومبي ووضعه في موقف حرج أمام جنده العائدين معه .

وادرك شيشيرون الأهداف الحقيقية للمشروع فانبرى ومعه الفرسان والنبلاء لمعارضته ، وقد القى في هذا الصدد أربع خطب لم تصلنا منها سوى ثلاثة^(٤٥) ، أما الأولى فقد القاها على مسامع رجال السناتور في اليوم الأول من شهر يناير ، وأاما الثانية والثالثة فقد ألقاها في الجمعية القبلية ، وكانت أولى هاتين الخطابتين الأخيرتين هي التي أثارت العامة إثارة بالغة ، وجعلتهم يقفون ضد المشروع وفقة عنيفة إلى درجة أن روللوس اضطر لسحبه قبل التصويت عليه^(٤٦) ، فقد أفهمهم شيشيرون أن روللوس ليس إلا أدلة في يد أعداء بومبي ، وأن هذه السلطات والموارد التي منحت للجنة العشرة ، إنما منحت لهم ليملأوا أجيوthem بالأموال ، ولعلهم يشترون أراضي مجده غير صالحة للزراعة من المقربين إليهم ثم يوزعنها على الفقراء فيعجز هؤلاء عن زراعتها واستثمارها .^(٤٧)

(٤٥) تعرف هذه الخطب الأربع باسم Delege Agraria (Rom. Rep. III, pp. 86—87) ، راجع عنها :

E.G. Hardy, Some Problems of Roman History, pp. 68 ff.

(٤٦) استطاع شيشيرون أن يؤثر على الشعبين ، وأن يشعل حاسهم لرفض المشروع أداء لهم أن صالح ليس إلا أدلة ببركتها غيره من يريدون الكيد لرومبي ، فضلاً عن كون المراقبة عليه تعي خروج العامة من روما التي يعيشون فيها حياة سهلة راغدة ، وينعمون بمما يحصلونها ومهما كانتها الماخوذة وما دبتها الحالة ، وبمحضه وبها على النفع بلا نعم ، يغمون من كل ذلك ويستقررون إلى حياة الريف حيث الكد والصب في فلاحة الأرض التي ربما تكون من النوع المجدب الذي لا ينبع به .

هكذا فشل كراسوس وقيصر مرة اخرى في تحقيق اهدافهما ، وكانت تلك اخر محاولاتها للكيد لبومبي اثناء غيابه عن روما ، فقد باتت عودته وشيكه ، ومن الحكمة ان يكفا عن القيام بأى عمل يوغر صدره ويدفعه الى استعمال القوة ضدهما .

قيصر برايتورا وكاهنا اعظم :

ومع ذلك فان قيصر - رغم هذه الهزيمة التي مني بها مع زميله كراسوس - لم يكف عن التفكير في توطيد مركزه في روما قبل ان يصل اليها بومبي ، فانتهز فرصة وفاة الكاهن الاعظم - ميتيلاوس ليوس - في شتاء عام ٦٤ - ٦٣ ق . م . ، وعقد العزم على الظفر بهذا المنصب الذي يتمتع به شاغله مدى حياته مع اختصاصات واسعة تهيء له مكانة بارزة في الحياة العامة . لكن احد تشريعات سلا كان يقضي بأن الجماعات الدينية وحدها هي التي تختار اعضاءها ، فلا بد اذا من ان يصبح قيصر اولاً عضواً في جماعة الكهنة حتى يمكن ترشيحه لمنصب الكاهن الاعظم ، وذلك امر مستبعد ، وهذا فقد اتفق قيصر مع احد ترابنته العامة - وهو تيتوس اتيوس لايبينوس كي يتقدم بمشروع قانون ينسخ تشريع سلا ، ويقضي بالعودة الى طريقة الانتخاب الشعبي العام لاختيار اعضاء الجماعات الدينية ، وقد تم ذلك فعلاً ، وصدر القانون المطلوب ، ويتم اختيار قيصر عضواً في جماعة الكهنة ، وبذلك أصبح مؤهلاً لترشيح نفسه لمنصب الكاهن الاعظم .

ورشح قيصر نفسه ، وكان ينافسه قنصلان سابقان ، لكنه اكتسحهما في عملية الانتخاب وظفر بالمنصب بفضل الرشاوى الكبيرة التي وزعها في سخاء ، وما لبث بعد ذلك ان رشح نفسه لوظيفة البرايتورية لعام ٦٢ ق . م . وظفر بها هي الاخرى ، وهكذا اصبح قيصر كاهنا اعظم وببرايتورا^(٤٨) .

مؤامرة كاتيلينا^(٤٩) :

هذا قيصر بعد هذا النصر الذي احرزه ، لكن كاتيلينا لم يهدأ منذ فشل في انتخابات القنصلية لعام ٦٣ ق . م . فقد تراكمت عليه الديون ، وتخلى عنه كراسوس تحسباً لعودته بومبي الوشيكة . لذلك رشح نفسه لقنصلية عام ٦٢ ق . م . واعلن في دعايته الانتخابية انه اذا فاز بالمنصب فسوف يلغى كافة

Dio Cass., XXXVII, 37; Plut., Caes., VII (٤٨)

Cic., Im Cat., I—IV, Dio Cass., XXXVII, 30—42; (٤٩)

Sallust., XX ff., Plut., Cic., XI—XXII; Caes., VII—VIII;

Hietland, Rom. Rep., III, pp. 93ff.; Holmes, Rom. Rep., I pp. 455ff.

الديون ، وهدفه هو اجتذاب اصوات النبلاء المفلسين ، وكذلك اصوات الفلاحين الذين رهنوا اراضيهم .

لكن شيشيرون فصل عام ٦٣ ق . م قام بدعاية مضادة ، وحذر جماهير الغاصبين من اساليب العنف التي اشتهر بها كاتيلينا ، ومن سياسة التطرف الشديد التي يمارسها . وانضم الى شيشيرون في موقف المعارضة الكثيرون من رجال السناتو الذين اعتبروا كاتيلينا خطرا كبيرا على النظام الجمهوري ، فاذا به يفشل في الانتخابات مرة اخرى^(٥٠) ، فقد صوابه وانجد يدبر مؤامرة للاستيلاء على مقايد الحكم في روما بالقوة^(٥١) .

وكان شيشيرون بخطبه النارية هو السبب الرئيسي في سقوط كاتيلينا في الانتخابات ، وهذا فقد قرر كاتيلينا قتله ، وقتل اعضاء السناتو الذين اعربوا عن تأييدهم له . لكن الشكوك بدأت تسارع شيشيرون حين علم ان كاتيلينا يكثر من عقد اجتماعات سرية مع اعوانه ، وما لبث هذه الشكوك ان اصبحت يقينا حين ضعف احد المتآمرین - وهو المدعو كورتيوس كوريوس) امام محظيته فولفيا (Fulvia) ، فأفضى اليها بتفاصيل المؤامرة ، فانزعجت غاية الانزعاج ، وهما الامر ، وما كان منها الا ان اتصلت بشيشيرون وابلغته كل شيء عرفته ، فكافأها مكافأة سخية وطلب اليها مداومة الاتصال به وابلاغه كل جديد يصل الى علمها عن المؤامرة والمتآمرین .

وعرف شيشيرون منها ان المتآمرين كانوا اخلطا من العبيد المحررين ، وبعض اعضاء السناتو ، وعددا من الفرسان ، وكذلك بعض ضباط سلا القداماء ، وعلى رأسهم مانليوس الذي كلف بتجهيز جند سلا القدامى الذين منحوا اقطاعات في اثروا ، على ان يتجمع هؤلاء في بريانتي في السابع والعشرين من اكتوبر للزحف على روما ليلا ومجاجة سكانها في صباح اليوم التالي ، ومن ثم القبض على اعداء كاتيلينا واعدامهم وتسلم زمام الحكم في الدولة .

وبعد ، فتلك معلومات بالغة الدقة وقف عليها شيشيرون ، لكنه كان لا يستطيع ان يقوم بأي اجراء ايجابي دون الحصول من السناتو على « قراره النهائي » ، وهذا لا يصدره السناتو الا بعد الحصول على ادلة قوية دامغة .. وسرعان ما جاء الدليل القاطع حين ايقظ كراسوس شيشيرون في احدى ليالي النصف الثاني من شهر اكتوبر واعطاه مجموعة من الرسائل سلمها اليه شخص مجهول ، فاذا بها كلها موجهة الى بعض اعضاء السناتو ، ومتضمنة تحذيرا من مذبحه توشك ان تقع في العاصمة ، ثم تنصحهم بالفرار من روما طلبا للنجاة .

Plut , Cic., XIV, Dio Cass, XXXVII, 29, Sallust.,

(٥٠)

B C., XXIV—XXVI; C.A.H., IX, pp. 491—494

Cf L. Hutchinson, The Conspiracy of Cataline, 1967 (٥١)

وايا كانت الحقيقة في هذا كله ، فقد استند إليها شيشيرون ودعا السناتو للانعقاد في اليوم التالي ، وأفضى إلى أعضائه بكل ما لديه من معلومات ، قائلًا أن المذبحة المشار إليها في الرسائل سوف تنفذ في اليوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر . وقد طلب إليه السناتو القيام بمزيد من التحريات لتفصي الحقيقة .

وبعد يومين آخرين ، أبلغ شيشيرون مجلس السناتو ان مانليوس - وهو أحد الضالعين في المؤامرة - بدأ يتحرك بقواته في اترووريا استعداداً للهجوم على روما في اليوم السابع والعشرين من أكتوبر ، وقد أيده في ذلك أحد أعضاء السناتو بناء على معلومات وصلته هو الآخر عن تلك المؤامرة .

وبعد أن استمع المجلس إلى تلك الأقوال أصدر « قراره الهائي » إلى شيشيرون لمواجهة الكارثة وحماية الدولة ، وعلى الفور بدأ هذا يحشد قواته العسكرية للتتصدي للمتأمرين ، وشكل حرساً خاصاً لحماية روما وبرايسي ، وهكذا خيب شيشيرون آمال كاتيلينا الذي آثر التريث ، لكنه لم يستطع القبض عليه لافتقاره إلى الأدلة التي تدينه وتثبت أنه المدير لهذه المؤامرة . وانقضى الثامن والعشرون من أكتوبر في هدوء .

لكن شيشيرون عاد فجتمع السناتو في الثامن من نوفمبر من نفس العام (٦٣ ق . م) اي بعد عشرة أيام فقط من اليوم الذي كان محدداً لتنفيذ المؤامرة ، وادلى للاعضاء بمعلومات جديدة تجمعت لديه ، ذلك أن فولفيا أبلغته ببناء خطبة جديدة رسماها كاتيلينا مع اعوانه بعد فشل خطتهم الأولى ، وذلك في اجتماع عقده هؤلاء الأعوان مع زعيهم في اليوم السادس من شهر نوفمبر ، وكانت الخطبة هذه المرة تقضي باشعال ثورة جامحة في العاصمة تبدأ بقتل شيشيرون في منزله ، ثم اضرام النيران في انحاء متفرقة من روما في وقت واحد ، ثم اطلاق العبيد للقيام بأعمال السلب والنهب ، وبعد ذلك يقود كاتيلينا القوات الموجودة في شمال اترووريا ويزحف بها على روما .

وحين اجتمع السناتو القى شيشيرون على أعضائه خطبه الشهيرة التي عرفت باسم « الخطبة الأولى ضد كاتيلينا » ، والغريب أن كاتيلينا شهد الاجتماع واستمع إلى شيشيرون وهو يشرح خطبة المتأمرين ، وبهاجم كاتيلينا بأعنف العبارات ، ثم توجه إليه في آخر الخطبة طالبا منه أن يريحه هو شخصياً وان يريح روما كلها ويرحل إلى جيشه الثائر في اترووريا !! والغريب أيضاً أن كاتيلينا استجاب لهذا المطلب وسافر فعلاً إلى اترووريا لتنظيم قواته الثائرة هناك ، وهي القوات التي كان يقودها مانليوس ، وحين علم السناتو بذلك أصدر قراره باعتبار الرجلين عدوين للدولة .

وقبل ذلك كان شيشيرون قد القى « الخطبة الثانية ضد كاتيلينا » في اجتماع عام للمواطنين بهدف

بـثـ الـطـمـانـيـةـ فـيـ نـفـوـسـهـ مـعـلـنـاـ لـلـمـتـأـمـرـينـ أـنـهـ سـوـفـ يـنـزـلـ أـشـدـ اـنـوـاعـ الـعـقـابـ بـكـلـ مـنـ تـحـدـهـ نـفـسـهـ بـالـقـيـامـ بـأـيـ عـمـلـ مـنـ اـعـمـالـ الـعـنـفـ وـالـشـغـبـ .

وطـالـ الـانتـظـارـ بـرـجـالـ كـاتـيلـيـناـ فـيـ الـعـاصـمـةـ ،ـ اـذـ طـالـتـ غـيـبـتـهـ فـيـ اـنـزـورـيـاـ ،ـ فـرأـواـ الـبـدـءـ بـتـنـفـيـذـ الـمؤـامـرـةـ دونـ اـنـتـظـارـ لـعـودـةـ زـعـيمـهـ ،ـ وـذـلـكـ باـشـعـالـ النـيرـانـ فـيـ اـنـحـاءـ الـعـاصـمـةـ ،ـ وـاطـلاقـ العـبـيدـ لـلـقـيـامـ بـاعـمـالـ السـلـبـ وـالـنـهـبـ وـقـتـلـ شـيـشـيـرـونـ وـعـدـدـ مـنـ مـؤـيـدـيـهـ مـنـ رـجـالـ السـنـاتـوـ ،ـ ثـمـ فـتـحـ اـبـوـابـ الـعـاصـمـةـ لـيـدـخـلـهـاـ كـاتـيلـيـناـ بـقـوـاتـهـ دـوـنـ عـنـاءـ .

ولـكـنـ حدـثـ مـاـ لـمـ يـكـنـ فـيـ الـحـسـبـانـ ،ـ ذـلـكـ اـنـ بـعـضـ سـكـانـ وـلـاـيـةـ بـلـادـ الغـالـ عـبـرـ الـاـلـبـ ،ـ اـرـسـلـوـاـ سـفـراءـهـمـ إـلـىـ السـنـاتـوـ يـشـكـونـ مـاـ يـنـزـلـهـ بـهـمـ الـرـأـبـوـنـ الـرـوـمـانـ ،ـ لـكـنـ اـحـدـاـلـمـ يـسـتـشـعـمـ بـهـمـ ،ـ فـيـشـسـوـاـ وـهـمـوـاـ بـالـرـجـوعـ إـلـىـ بـلـدـهـمـ ،ـ وـهـنـاـ اـنـتـهـزـ الـمـتـأـمـرـونـ فـرـصـةـ ،ـ فـاتـصـلـوـاـ بـهـمـ وـوـعـدـوـهـمـ بـحـلـ مشـكـلـتـهـمـ اـذـاـهـمـ زـوـدـوـاـ جـيـشـ كـاتـيلـيـناـ بـفـرـقةـ مـنـ فـرـسـانـهـمـ ،ـ فـمـاـ كـانـ مـنـهـمـ إـلـاـ اـنـ اـتـصـلـوـاـ بـشـيـشـيـرـونـ وـابـلـغـوـهـ بـمـاـ كـانـ مـنـ الـمـتـأـمـرـينـ ،ـ فـطـلـبـ هـذـاـ الـيـهـمـ التـظـاهـرـ بـالـلـوـافـقـةـ شـرـيـطـةـ اـنـ يـعـطـيـهـمـ الـمـتـأـمـرـونـ وـثـيقـةـ مـكـتـوبـةـ وـعـلـيـهـاـ اـخـتـامـ زـعـمـائـهـمـ وـكـاتـيلـيـناـ نـفـسـهـ .ـ .ـ .ـ وـقـعـ الـمـتـأـمـرـونـ فـيـ الشـرـكـ فـحـرـرـوـاـ الـوـثـيقـةـ الـمـطـلـوـبـةـ وـعـلـيـهـاـ اـخـتـامـ كـاتـيلـيـناـ وـزـعـمـاءـ الـمـؤـامـرـةـ ،ـ فـمـاـ كـانـ مـنـ شـيـشـيـرـونـ إـلـاـ اـنـ قـبـضـ عـلـىـ الـمـوقـعـينـ عـلـىـ الـوـثـيقـةـ .

وـفـيـ اوـاـئـلـ دـيـسـمـبـرـ اـجـتـمـعـ السـنـاتـوـ وـاسـتـبـعـ اـعـضـاؤـهـ إـلـىـ القـصـةـ كـامـلـةـ مـنـ اـفـوـاهـ السـفـراءـ ،ـ وـاعـتـرـفـ الـمـتـأـمـرـونـ اـمـاـهـمـ بـصـحةـ اـخـتـامـهـمـ التـيـ عـلـىـ الـوـثـيقـةـ ،ـ فـقـرـرـ السـنـاتـوـ تـحـدـيدـ اـقـامـتـهـمـ فـيـ منـازـلـ بـعـضـ السـخـصـيـاتـ الـبارـزةـ ،ـ كـانـ قـيـصـرـ وـاحـدـاـهـمـ .ـ ثـمـ الـقـبـيـ شـيـشـيـرـونـ اـخـطـبـةـ الـثـالـثـةـ ضـدـ كـاتـيلـيـناـ لـيـفـهـمـ .ـ العـامـةـ اـنـهـ بـالـعـلـمـ الـذـيـ قـامـ بـهـ قـدـ انـقـذـ فـقـرـاءـ الـعـامـةـ مـنـ حـرـقـ مـنـازـلـهـمـ وـانـ الـعـنـيـةـ الـاـلـهـيـةـ هـيـ الـتـيـ وـفـقـتـهـ فـيـ كـلـ مـاـ قـامـ بـهـ .

وـفـيـ الـخـامـسـ مـنـ دـيـسـمـبـرـ اـجـتـمـعـ السـنـاتـوـ مـرـةـ اـخـرـىـ لـاـتـخـاذـ قـرـارـ فـيـ شـأنـ الـمـحـتـجزـينـ مـنـ الـمـتـأـمـرـينـ ،ـ وـبـعـدـ مـنـاقـشـةـ حـامـيـةـ .ـ شـارـكـ فـيـهاـ قـيـصـرـ .ـ صـدـرـ الـقـرـارـ بـاـعـدـاـهـمـ ،ـ وـكـانـ ذـلـكـ هـوـ الرـأـيـ الـذـيـ تـحـمـسـ لـهـ وـنـادـيـ بـهـ التـرـيـبـوـنـ مـارـكـوـسـ كـاتـوـ ،ـ وـنـفـذـ شـيـشـيـرـونـ الـقـرـارـ عـلـىـ الـقـوـرـ ،ـ وـوـجـدـ قـيـصـرـ نـفـسـهـ فـيـ مـوـقـفـ لـاـ يـحـسـدـ عـلـيـهـ ،ـ لـاـنـهـ خـطـبـ خـطـبـةـ طـوـيـلـةـ فـيـ السـنـاتـوـ تـحـذـرـ مـنـ اـعـدـاـهـمـ وـتـكـتـفـيـ بـنـفـيـهـمـ وـمـصـادـرـ مـعـتـلـكـاتـهـمـ مـرـاعـاـتـةـ لـلـقـوـاـعـدـ الـدـسـتـورـيـةـ وـهـكـذـاـ وـقـعـتـ الـخـصـومـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ التـرـيـبـوـنـ كـاتـوـ ،ـ وـهـيـ خـصـومـةـ سـوـفـ نـرـىـ هـاـ اـثـرـاـ كـبـيرـاـ فـيـ السـيـاسـةـ الـرـوـمـانـيـةـ عـمـاـ قـلـيلـ .ـ وـكـاتـوـ هـذـاـ هـوـ اـبـنـ حـفـيدـ كـاتـوـ الـكـبـيرـ الـذـيـ شـهـدـ الـحـربـ الـبـوـنـيـةـ الـثـانـيـةـ وـصـاحـبـ الـعـبـارـةـ الشـهـيـرـةـ .ـ لـاـبـدـ مـنـ تـدـمـirـ قـرـطـاجـةـ .ـ وـقـدـ وـرـثـ عـنـ جـدـهـ الـاـكـبـرـ الـكـثـيرـ مـنـ صـفـاتـهـ .ـ اـمـاـ شـيـشـيـرـونـ فـقـدـ اـغـدـقـ عـلـيـهـ السـنـاتـوـ لـقـبـ «ـ اـبـوـ الـوـطـنـ »ـ (ـ Pater Patriaeـ)ـ .

وبعد ذلك ، وعندما تولى الترابنة الجدد مناصبهم في العاشر من شهر ديسمبر عام ٦٣ ق . م . ندد واحد منهم - وهو المدعونبيوس - بسلوك شيشيرون المجافي للدستور ، وتقدم بمشروع قانون لاستدعاء بومبي وتكليفه مهمة القضاء على كاتيلينا الذي كان لا يزال مع قواته في أترووريا بل وانقاد الدستور من استبداد شيشيرون (الذي كانت لا تزال امامه فترة تزيد على اسبوعين حتى تنتهي مدة قنصليته) . وانتهز قيسار هذه الفرصة للتقارب من بومبي وكسب وده ، فأيد المشروع ، لكن احد زملاء نبيوس عارضه بشدة ، وثار شغب شديد في العاصمة فأصدر السناتو « قراره النهائي » لحماية الدولة ، وهنا اضطر نبيوس الى الفرار من روما فغادرها ولجأ الى بومبي في الشرق ، وفي خلال هذه الازمة انتهت قنصلية شيشيرون^(٥٢) .

ودب اليأس في قلوب اعوان كاتيلينا فاخذوا ينفطون من حوله ، ولما فقد كل امل في دخول روما حاول شق طريقه الى ولاية بلاد الغال عبر الالب ، لكن القوات الحكومية تصدى له وسدت عليه كل السبل واخيرا اكره على خوض معركة يائسة مع هذه القوات عند بيسطوريا (بالقرب من فلورنسا) حيث لقي مصرعه في اوائل يناير من عام ٦٢ ق . م .^(٥٣)

الوفاق بين النبلاء والفرسان :

وهكذا خلصت روما من شر مستطير بالقضاء على كاتيلينا ومؤامراته ، وادرك ان ضربا من التفاهم والوفاق قد تم بين طبقة الفرسان والنبلاء ، اذ دفن رجال الطبقتين ما بينهما من حقد وبغض ، وتعاونا معا لدفع اخطار المؤامرة ، فرأى ان استمرار هذا الوفاق يكفل دون ريب قيام حكومة قادرة على حماية النظام الجمهوري ، وعلى نشر الهدوء والاستقرار ، وتوفير الحياة الآمنة الكريمة للرومان^(٥٤) .

ولتحقيق هذا الهدف ، رأى شيشيرون انه بحاجة الى كسب ود قائد كبير ليتعاون معه في هذا الصدد ، فيحمي مثل هذه الحكومة بعد تشكيلها ولو باستخدام القوة اذا لزم الامر . ولم يكن هناك من يفضل بومبي للقيام بهذه المهمة ومن ثم حاول كسبه الى جانبه لاقامة الوفاق المنشود ، لكن بومبي لم يكن صافى النية تجاه شيشيرون لانه انفرد بالقضاء على مؤامرة كاتيلينا دون ان يستعين بالقائد المظفر بومبي ، ولانه بالغ في التحدث عن نفسه كمنفذ لرومما من خطر ماحق كان يتهددها ، كأنما يريد ان يجعل من نفسه ندا لبومبي .

Dio Cass., XXXVII, 43; Plu., Cic , XXIII^(٥٢)

Sallust., B.C., LVI—LXI, Dio Cass, XXXVII, 39—41^(٥٣)

J.R S., 1954,pp 1H ; Class Quart., 1960,pp46 ff.^(٥٤)

لذلك جاء رد بومبي على الرسالة التي بعث بها إليه شيشيرون بشأن الوفاق ، مخيبا تماماً لكل آمال هذا الأخير الذي لاذ بالصمت ، ثم قضى النبلاء بعد ذلك على كل ذرة أمل في نجاح الفكرة بالوقف المتعنت الذي اتخذوه لأنفسهم تجاه بومبي حين عاد من الشرق على نحو ما سوف نرى .

بومبي يعود من الشرق :

عاد بومبي من الشرق في أواخر عام ٦٢ ق . م . فأذهل الجميع بسلكه ، ذلك انه حين نزل بميناء برنديزي سرح قواه كلها ولم يستبق منها غير حرس قليل العدد احتفظ به الى حين الاحتفال بانتصاراته ، وكان النبلاء وخاصة يعتقدون انه سوف يحافظ باكامل قواه لعله - استنادا اليها - يفعل ما فعله من قبل - استناده سلا باعدهائه .

ويبدو ان بومبي لم يكن يتطلع حينذاك الى انتهاء نظام الحكم الجمهوري واقامة حكم فردي ، فتلك مغامرة محفوفة بالمخاطر غير مأمونة العواقب ، اما كان يعتقد انه اصبح الرجل الوحيد الذي يستطيع انقاذ روما من اي مخاطر او ازمات تتعرض لها وان مقاليد الامور في الدولة سوف تؤول اليه بطريقة شرعية ودون عناء بعد كل الانتصارات التي حققها وبعد المكانة التي وصل اليها . وحين وصل الى العاصمة واجتمع مجلس السناتو ، القى على اعضائه خطابا ابرز فيه احترامه الشديد للنبلاء ورغبتة في استرضائهم والتفاهم معهم بل انه حاول ان يرتبط مع كانوا الصغير برباط المصاهرة^(٥٥) ، وضرب صفحات عن كل ما قام به كراسوس ضده اثناء غيابه فادخل الاطمئنان في قلبه الى درجة انه عاد بأسرته الى روما وكان قد غادرها خوفا من الانتقام الذي توقع ان ينزله به بومبي .

لقد كان بومبي لا يريد من السناتو اكثر من التصديق على القرارات التي اتخذها لتنظيم الاوضاع في الشرق ومنع جنده الذين عاد بهم وسرحهم فور وصوله الى ميناء برنديزي اقطاعات زراعية وفق القواعد المتبعة ، والحق انه لم يكن في كلا المطلبين اي اسراف ، خصوصا اذا اخذنا في الاعتبار انه اودع خزانة الدولة مبالغ ضخمة من الاموال اثر عودته ، وان فتوحاته ضاعفت او كادت مقدار الجزية السنوية التي تحصل عليها الدولة .

لقد كان حريا برجال السناتو - لوانهم اوتوا شيئا من بعد النظر - ان ينتهزوا هذه الفرصة التي أتاحها لهم بومبي على غير توقع منهم فيستجيبوا لمطالبه المعقوله وبالتالي يكسبونه كحليف قوي ومن ثم يصبح سندًا لهم يدفعون به اي شر يراد بالنظام الجمهوري لكنهم كانوا قصيري النظر الى حد بعيد ويبدوا لهم

لم يستطيعوا نسيان ما فعله بهم يومي من قبل ، حين أرغمهم على السماح له بتولي القنصلية في عام ٧٠ ق . م ، وحين استغل سلطاته كقنصل وقوض دعائيم دستور سلا ، وحين سخر اثنين من ترابته العامة في عامي ٦٧ ، ٦٦ ق . م ، ليظفر بسلطات هائلة لم يسبق ان منحت لأحد من قبل ، بينما تناسوا تماما انه سرح قواته فور عودته من الشرق ووصوله الى شواطئ ايطاليا مع انه كان يستطيع الاحتفاظ بهم وأملاء ارادته عليهم .

لذلك صمم رجال السناتو على مناقشة كل التنظيمات التي اجراها في الشرق مناقشة تفصيلية وماطلوا في منح جنده المسرحين الاقطاعات الزراعية التي طلبها لهم حتى لقد انتهى عام ٦١ ق م . دون تحقيق شيء من مطالب يومي ، وهكذا ظن النبلاء انهم قد انتصروا عليه واظهروه بمظهر العجز امام جنده لكنهم كانوا واهمين .

عودة قيصر من اسبانيا :

ذكرنا من قبل ان قيصر شغل منصب البرايتور في عام ٦٢ ق م . وبعد ذلك تولى حكم ولاية اسبانيا القاسية بوصفه برايتورا سابقا - في عام ٦١ ق م . واستطاع وهو يمارس الحكم هناك ان يقوم ببعض الحملات الناجحة على حدود الولاية فتهيأت له فرصة جمع الاموال اللازمة لتسديد الديون التي تراكمت عليه .

وعاد بعد ذلك الى روما في شهر يونيو عام ٦٠ ق . م . فوجد النزاع محتدما بين يومي والنبلاء ، وتقدم للسناتو قبل ان يدخل العاصمة بطلين مما اقامة موكب للانتصارات التي احرزها ، وترشيح نفسه لمنصب القنصلية لعام ٥٩ ق . م . لكن السناتو ماطل في الاستجابة لمطلب دخوله العاصمة في موكب رسمي ، ولم يوافق على ترشيحه للقنصلية وهو غائب عن العاصمة فما كان منه الا ان تنازل عن اقامة الموكب وتخطى سياج مدينة روما وقد ترشحه لمنصب القنصلية بنفسه فلما اجريت الانتخابات فاز فوزا كبيرا بفضل التأييد الذي لقيه من كراسوس وبومبي وانصارهما وفاز معه بالمنصب الثاني مرشح الحزب الاستقراطي وهو بيبولوس (M.Bibulus) زوج ابنة كانو .

ولقد كان في وسع السناتو في هذه الظروف الحرجية - لو اصطنع رجاله قدرها من الحكم واتبعوا سياسة عملية - ان يستجيبوا لرغبة قيصر في ترشيح نفسه للقنصلية وهو غائب خارج العاصمة (In Absentia) ، فلذلك سوابق معروفة ، لكنهم رکعوا رؤوسهم فرفضوا بهدف اضاعة فرصة الترشيح عليه !

وهكذا جر البلاء على انفسهم كل البلاء فقد اغضبوا بحمقهم ونزعهم كلا من بومبي وقيصر اذ رفضوا مطالبهم ، كما اغضبوا من قبل كراسوس ومعه طبقة الفرسان على نحو ما اوضحنا ، واعتقدوا انهم انتصروا على اعدائهم جميعا وان الامور قد استتب لهم .

التحالف الثلاثي وبداية انهيار النظام الجمهوري^(٥٦) :

كان طبيعيا ان يدفع موقف البلاء المتعنت كلا من بومبي وقيصر وكراسوس الى الارقاء في احضان العامة ، ولقد شكل هؤلاء الثلاثة تحالفا (غير رسمي) يجمع بينهم ، وهو التحالف الذي يطلق عليه بعض الباحثين اسم « الحكومة الثلاثية الاولى » تميزا له عن التحالف الرسمي الذي ابرم في عام ٤٣ ق . م ، بين اوكتافيوس وانطونيوس وليبيوس ، والذي صدر بتشكيله قانون خاص ، وتألفت بوجهه « الحكومة الثلاثية الثانية » .

ويطلق الكتاب القديم على التحالف الذي بدأ سريا بين بومبي وزميليه اسم « تحالف القوة » احيانا ، كما يطلقون عليه اسم « المؤامرة » او « الطغيان » احيانا اخري ، وسبب ذلك ان المتحالفين الثلاثة سرعان ما جلأوا الى القوة المسلحة او الى التهديد باستخدامها لتحقيق اهدافهم وفرض ارادتهم على الدولة ، بل وتحظيم السناتو وارهاب الجمعيات الشعبية وتسخير الترابنة لتنفيذ ما يريدون .

لقد بات كل شيء في الدولة رهنا بمشيئتهم ولذلك تعتبر قيام هذا التحالف بثابة البداية الفعلية لانهيار النظام الجمهوري .

وأغلب الظن ان صاحب فكرة قيام هذا التحالف كان قيصر الذي لم يجد صعوبة في التفاهم مع كل من بومبي وكراسوس ، ففضل التحالف بينهم سوف يستطيع الاول تحقيق مطلبيه اللذين رفضهما السناتو على نحو ما اوضحنا وسوف يتمكن الثاني من اعادة النظر في عقد شركة جباة الضرائب الذين التزموا بجايتها من ولاية اسيا . اما قيصر - صاحب الفكرة - فلسوف يفيد من مكانة بومبي الرفيعة ومن كراسوس العريض لتحقيق الاهداف الخاصة التي رسمها لنفسه . واذا كان قيصر هو صاحب الفكرة ، الا انه ارضاء لغور بومبي ، او همه بأنه هو صاحب الكلمة الاولى والاخيرة في التحالف ، بينما كان قيصر في الواقع الامر هو العقل المدبر في التحالف ورئيسه الفعلي . ولقد حاول قيصر امعانا في توطيد اركان التحالف ان يضم اليه شيشيريون للافادة من مواهبه الخطابية العالية ومن مكانته السامية

(٥٦) عن هذا التحالف السري الذي يسمى احيانا الحكومة الثلاثية الاولى ، راجع .

Hietland, Rom. Rep., III, pp 123—124, J. Balsdon, J.R.S., 1939, pp. 180ff., C.A H., IX, pp. 512—515

بين الإيطاليين عموماً ، لكنه عجز عن تحقيق ذلك لتمسك شيشرون الشديد بالقواعد الدستورية ولولاته واحلاصه الكاملين للنظام الجمهوري^(٥٧) .

قانون قيصر للاراضي ينفذ بالقوة :

وما ان تولى قيصر منصب القنصلية في عام ٥٩ ق . م حتى تقدم بمشروع قانون للاراضي (Lex Julia Agraria) ، يقضي بتوزيع اقطاعات من الاراضي الصالحة للزراعة على جند بومبي المسرحين والمواطنين المعدمين ، على ان ينفق جانب من الاموال التي عاد بها بومبي من الشرق لشراء مساحات من الاراضي الخاصة ، تكفي لتنفيذ المشروع الذي انيط بهيئة مكونة من عشرين شخصاً ليس بينهم قيصر^(٥٨) .

لكن كاتو عارض المشروع بكل قوته ، وأيده النبلاء في السناتو ، فما كان من قيصر الا ان تقدم بمشروعه للجمعية القبلية ، ولم يتقدم بعد ذلك بأي مشروع من مشروعاته الى السناتو على الاطلاق ، واضاف للمشروع بنداً يقضي ببنفي اي عضو من اعضاء السناتو لا يقسم - خلال فترة معينة - على احترام المشروع بعد ان يصبح قانوناً نافذاً في حالة موافقة الجمعية القبلية عليه .

وهنا انبرى بيبولوس - زميل قيصر في القنصلية - وكذلك كاتو ومعهما بعض الترابنة ، لمعارضة المشروع بكل عنف ، فما كان من قيصر الا أن اتفق مع بومبي على ان يجشد جنده المسرحين يوم التصويت على المشروع لطرد المعارضين بالقوة من السوق العامة حيث كان الاجتماع ، وامام هذه القوة العسكرية ذات المعارض ، واخذت الاصوات فتمت الموافقة على المشروع واصبح قانوناً نافذاً رغم انف السناتو والمعارضين جميعاً ، ولم يجرؤ احد من اعضاء السناتو على عدم حلف اليمين المنصوص عليه في القانون^(٥٩) .

وقد تبيّنت اللجنة المكلفة بتنفيذ القانون ان الاراضي المنصوص عليها فيه لا تفي بالحاجة ، فاقتصر قيصر في شهر مايو من نفس عام قنصليته ، مشروعه تكميلياً يقضي بتوزيع الاراضي العامة في كمبانيا على فقراء المواطنين ، وقد صودق على هذا المشروع واصبح قانوناً (Lex Julia & Campania) ، وزوّزت الاراضي على الاسر التي بها ثلاثة ابناء على قيد الحياة^(٦٠) ويحدثنا سوتينيونيوس ان هذه الاسر

Cic., ad Att., II, 18,3.; Plut., Cic., XXX, 9—12 (٥٧)

Plut., Caes., XIV, 5; Cato, inor, XXXII; Dio Cass. XXXVIII. (٥٩)

Dio Cadd., XXXVIII, 7,3. (٦٠)

بلغت عشرين الف اسرة^(٦١) . اما المؤرخ بلوتارخوس^(٦٢) . فيقول ان اراضي كامبانيا قد وزعت بمقتضى هذا القانون على الجنود ، بينما يقول شيشيرون^(٦٣) - الذي عاصر صدور القانون - ان جانبا من هذه الاراضي قد اعطى لجند بومبي المسرحين ، مما يوحي بان جميع جند بومبي المسرحين لم يظفروا بالاراضي بناء على القانون الاول .

قوانين اخرى يوحي بها قيصر :

لقد تحقق بفضل هذين القانونين المكملين لبعضهما المطلب الاول لبومبي ، وهو منح اقطاعات لجنده المسرحين ، ويقي المطلب الثاني ، وهو التصديق على القرارات التي اصدرها لتنظيم الشئون في الشرق ، وكذلك بقي مطلب كراسوس الخاص بتحفيض قيمة الضرائب التي التزم بها الذين رسا عليهم مزاد الجباية في ولاية اسيا . وقد اوصى قيصر الى زميله في التريبونية - وكان من اكبر مؤيديه - بوبيليوس فاتينيوس باصدار القوانين التي تتحقق هذه المطالب كلها ، واستجاب بوبيليوس فاستصدر مجموعة من القوانين كان احدها خاصا بالتصديق على التنظيمات التي اجرتها بومبي في الشرق ، وقضى قانون اخر بتحفيض المبالغ التي تعاقدت عليها شركة جباية ضرائب ولاية آسيا بمقدار الثلث^(٦٤) ، اما القانون الثالث فكان يقضي بالاعتراف ببطرليموس الثاني عشر (الزمار) ملكا على مصر^(٦٥) ، ويقال ان الزمار دفع لقيصر وبومبي رشوة هائلة لقاء هذا الاعتراف ، وانه عجز عن سدادها كاملة قبل وفاته^(٦٦) .

وهكذا ارضي قيصر حليفه تمام الرضى ، وخدم مصالح كل من طبقي الفرسان والشعبين ، ولم يبق الا ان يفكر في نفسه ومصالحه هو ، وهكذا انكشف تماما امر التحالف الثلاثي الذي عقد بين اعضائه سرا ، واصبح امره معروفا واضحا .

واوصى قيصر الى زميله بوبيليوس باصدار قانون من الجمعية القبلية يقضي بائناد حكم ولاية بلاد الغال جنوب الالب (Galia Gisalpina) الى قيصر لمدة خمسة اعوام تبدأ من شهر مارس عام

Suer., Div. Jul., XX,3. (٦١)

Plut., Cic., XXVI,3. (٦٢)

Cic., ad Att , XVI,8,1. (٦٣)

Dio Cass., XXXVIII,7; App., B.C., II,13. (٦٤)

(٦٥) كاك الزمار قد احتل عرش مصر بعد ايه في عام ٨٠ ق م واثبج حيدراك ان ذلك الاٌٰب (بطرليموس الحادي عشر) قد اورث مصر لروما بمحض وصبة لم تثبت صحتها ولم يثبت بطلانها ، وامعن الساتوري التسريف في الاعتراف بالزمار ليضع اعصابه جشعهم من رشارية ، ادراوه مسرفا في الكتاب على ارضائهم بشق السبل في سبيل الحصول على الاعتراف به ملكا على مصر لا سيما بعد ان تقدم واحد من المراية - نابعا من كراسوس - بمشروع لضم مصر الى الممالك الرومانية .

Suer., Dio. Jul.,LIV,3. (٦٦)

٥٩ ق . م . (اي بعد شهرين اثنين فقط من بدء قنصليته !!) وبأن توضع تحت امرته ثلاث فرق عسكرية ، وتطلق يده في اختيار مساعديه دون الرجوع الى السناتو ، وان يكون له الحق في انشاء ما يرى من مستعمرات . وتم ذلك فعلا ، وصدر القانون من الجمعية القبلية لا من السناتو ، ثم انه كان يعطي قيصر حكم الولاية وهو لا يزال قنصلا لا بعد انتهاء عام القنصلية ، ولمدة خمس سنوات متصلة لا لمدة عام واحد يجوز تجديده كما كانت القواعد المتبقية ، وتلك كلها امور تنطوي على خرق فاضح للدستور .

وليس من شك في ان قيصر قد فكر مليا في امر الولاية التي يتطلع الى حكمها بعد انتهاء قنصليته ، وان اختياره وقع على ولاية بلاد الغال جنوب الالب ، فهي ولاية غنية ، وهي اصلاح الممتلكات الرومانية لتجنيد القوات العسكرية ، وهي غير بعيدة عن روما . وهكذا كان الظرف بحكم هذه الولاية يتبع لقيصر فرصة تجنيد القوات التي يريد لها دون عناء ، كما يتبع له توسيع قيادة عسكرية كبيرة على مقربة من العاصمة بحيث يستطيع ان يصل اليها بسرعة ودون اضاعة وقت طويل اذا لزم الامر .

وبعد فترة قصيرة اوعز بومبي الى السناتو اصدار قرار يقضي باسناد حكم ولاية بلاد الغال عبر الالب ايضا الى قيصر التي توفي حاكمها ، على ان يزداد عدد الفرق العسكرية الى اربع (بدلا من ثلاث كما ذكرنا) ، وصدر القرار فعلا ، فاتسع نطاق المهمة التي اوكلت لقيصر ، واعتقد السناتو انه قد يعجز عن ادائها ، فيتهي امره دون عناء^(٦٧) . لكن اعتقادهم كان خاطئا ، ولسوف نرى ان اسناد حكم هذه الولاية (غاله عبر الالب) الى قيصر هو الذي هيأ له فرصة بناء جيش قوي علي التدريب ، ثم هيأ له - تبعا لذلك - بناء مجد عسكري هائل يتضامن الى جواره المجد الذي حققه بومبي نفسه .

واذا كان قيصر قد استصدر من القوانين ما يحقق امال اعضاء التحالف الثلاثي ، وما يخدم مصالح طبقة الفرسان والشعبين ، فمن الانصاف ان نذكر له في هذا الصدد انه استصدر قانونا اخر لم يكن له من ورائه اي هدف غير خدمة المصلحة العامة ، ذلك هو القانون الذي صدر للحيلولة دون ابتزاز الاموال من اهالي الولايات ، وفيه جمع قيصر كل ما صدر قبله في هذا الصدد ، وسد كل ما كان هناك من ثغرات في القوانين السابقة ، فوضع قواعد محددة لمنع التزويد في الحسابات الحكومية الرسمية ، وفرض عقوبات صارمة رادعة على المخالفين ، وهو القانون الذي عرف باسم (Lex Julia de Repetundis^(٦٨)).

Dio Cass., XXXVIII,5., Plut., Caes., XIV,6. (٦٧)

Hietland, Rom. Rep., III,p.144 (٦٨)

وكذلك قام قيصر بعمل جليل آخر ، وهو ذلك القرار الذي اصدره وكان يقضي بأن تنشر على الشعب يوميا نسخ من القرارات التي يصدرها السناتو او تصدرها الجمعيات الشعبية الأخرى^(٦٩) . وواضح ان الهدف كان نشر قرارات السناتو على افراد الشعب ، لأن قرارات الجمعيات الشعبية الأخرى كانت تصدر عن الشعب نفسه ، فهو يعرفها تمام المعرفة ، اما السناتو فكانت قراراته تصدر بتوقيع رئيسه وشهادة بعض اعضائه ، ثم ترسل بعد ذلك الى دار المحفوظات لايادعها هناك دون ان يطلع عليها احد ، الامر الذي جعل اجراء اي تحريف او تزييف فيها امرا ميسورا . فقرار قيصر اذا كان يعني ايجاد سجل رسمي علني لقرارات السناتو ، او ايجاد ما يمكن ان نسميه بتعبيرنا الحديث « جريدة رسمية » . ولاشك ان هذا القرار قد سبب ضيقا بالغالبية العظمى من اعضاء السناتو ووضعهم امام الشعب في قيد شديد لا يستطيعون معه ممارسة اي تزييف او تغيير في قرارات مجلسهم لما كانوا يفعلون وقد ظل قرار قيصر هذا معمولا به حتى ايام اوغسطس الذي حاول استرضاء رجال السناتو بعد ان ولى الحكم ، فأعفاهم من نشر قراراتهم على الشعب^(٧٠) .

وبعد - فلقد غدا قيصر قوة هائلة في روما في اواخر عام قنصليته (٥٩ ق . م) فهو يتمتع بسلطة القنصل وسلطة البروقنصل معا ، وذلك وضع يسمح له بالاحتفاظ بقواته العسكرية في اي مكان من شبه الجزيرة الايطالية ما دام خارج سور العاصمة ، وبالتالي يتبع له السيطرة الكاملة على مجريات الامور السياسية في الدولة ، فضلا عن ان منحه السلطة البروقنصلية طيلة اعوام خمسة جعله في مأمن من التعرض للمحاسبة على اي تصرفات غير دستورية قد يقوم بها في خلال عام قنصليته .

والحق ان هذا التحالف الثلاثي قد جعل من اطرافه الثلاثة قوة تعلو على اية هيئة حكومية ، فقد اصبحت الامبراطورية ومقدراتها كلها في قبضتهم ، بل ان هذا التحالف يعتبر - كما رأى شيشرون وكاتو - السبب الرئيسي لاشتعال نيران الحرب الاهلية في روما ، ومن ثم انتهاء النظام الجمهوري : فهو لاء ثلاثة رجال يستندون الى قوة السلاح التي وضعت في قبضة واحد منهم ، هو قيصر ، كما يستندون الى تأييد كاسح من جانب الشعبين وكثير من الفرسان ، فاستطاعوا ان يحطموا السناتو ، وان يحرموا اصحاب الرأي حرية الكلمة ، بل ويسلبوهم كرامتهم .

قيصر يرتب الأمور قبل ان يريح روما :

كانت أساليب الحلفاء الثلاثة في البطش بعارضيهم كفيلة باثاره الكثرين ، فبدأوا بتهماسون عنهم

Suer , Div. Jul , XX, 1. (٦٩)

Suer , Div. Qug., XXXVI (٧٠)

وعن تصوفاتهم ، بل ان البعض لم يتحرج من ابداء معارضته علانية في المسرح اثناء العروض ، فاذا بالنظارة من شعبيين وفرسان يصفقون ويهللون لهذه المعارضة^(٧١) ، - بعد ان كانوا من المؤيدين للحلفاء - ما دفع هؤلاء الى تهديد الفرسان بحرمانهم من المقاعد الممتازة المخصصة لهم في المسرح ، كما هددوا الشعبين بحرمانهم من شراء القممع بالاسعار الحكومية الزهيدة ، فلزم هؤلاء وهؤلاء الصمت واثروا المنافع العاجلة التي كانوا يحصلون عليها^(٧٢) .

هكذا كان القلق الشديد هو السمة البارزة للأوضاع في روما ، ويدو ان مظاهر الاحتجاج هذه قد شغلت بالبومبي ، خصوصاً وقد ابدى شيشيرون وكانتو . وهم اكبر اعداء التحالف ورجاله الثلاثة - اسفهم الشديد على المدى الذي انحدرت اليه الاوضاع في عاصمة الجمهورية^(٧٣) .

ورأى قيسرو - امام هذه الحال - ان يتخد من الخطوات ما يكفل اطمئنانه على الاوضاع اثناء غيابه عن روما ، فزوج ابنته الوحيدة - يوليا Julia - من بومبي بعد ان فسخ خطبتها التي تمت قبل ذلك الى رجل آخر ، فكان ذلك الزواج سبباً في استمرار علاقات الود والتحالف بين قيسرو وبومبي الى حين وفاة يوليا في عام ٥٤ ق . م .

وكان الحلفاء الثلاثة قد اتفقوا على ان يتولى القنصلية في عام ٥٨ ق . م كل من جابينيوس ، وهو احد صنائع بومبي الكبار ، وكالبورنيوس بيسو الذي رأى كقيصر ان يربطه اليه برباطوثيق حتى يضمن اخلاصه له فتزوج من ابنته كالبورنيا بعد ان فسخت خطبتها المعقودة لرجل آخر^(٧٤) .

وبعد ذلك فكر قيسرو في خليفة للتريبون فاتينيوس ، معاونه الكبير ، كي يقوم بنفس دور سلفه في تنفيذ اهداف الحلفاء الثلاثة ، فوق اختيارة على شاب عاشر يدعى كلوديوس ،^(٧٥) كان يضمراً حقداً شديداً وكراهية بالغة لشيشيرون الذي يتمنى الحلفاء ان يتخلصوا منه ومن معارضته الشديدة .

وأجرت انتخابات القنصلية فاز مرشحاً الحلفاء ، جابينيوس وبيسو ، وكذلك فاز معظم من رشحوهم لمناصب التريبونية وعلى رأسهم كلوديوس الذي رسم له قيسرو الخطة التي ينبغي ان يتبعها ،

Cic., ad Att., II, 18; 19; 20. (٧١)

C.A.H., IX, p. 520 , Cic., ad Att., II, 19 (٧٢)

Dio Cass., XXXVIII, 10, 4—11. (٧٣)

Suer., Div. Jul., XXI; Plu., Caes. XIV, 4—5 ; Po,p , XLVii, 6. (٧٤)

(٧٥) كان كلوديوس هذا من اشد اعداء شيشيرون لأن هذا شهد ضد في قضية اتهم فيها بارتكاب فعل واضح وباتهاك الشعائر الدينية ، وكان يتنمي الى طبقة البلاه ، ولا بد لترشيحه للتريبوية ان يكون متمنياً الى العامة ، لهذا سعى قيسرو حتى اقنع احد رجال العامة بتبيه ، فاستباح لذلك ، ومهكذا امكن ترشيح كلوديوس للتريبوية وفارها ، والغرب ان الذي تناه كان اصرع منه سنا (Cf. Hietland, Rom. Tep. III, p.133.)

وافهمه ان القنصلين سوف يكونان عونا له على ان يخصص لها ولابي سوريا (جابينيوس) ومقدونيا (ليسو) بدلا من الولaitين التافهتين اللتين خصصهما لها السناتو^(٧٦) .

وما ان اعتلى كلوديوس منصب التربية حتى استصدر في شهر يناير من عام ٥٨ ق . م . اربعة قوانين كانت كلها تستهدف خدمة مصالح الحلفاء الثلاثة ، وقد حاول شيشيرون ان يعطل صدورها مستعينا بتربيون آخر كان صديقا حبيبا له ، وهو المدعو كرادراتوس ، لكن هذا سرعان ما تخلى عن التصدي لمشروعات كلوديوس الذي استماله الى جانبه بوعده كاذب بـألا يمس شيشيرون بأي سوء^(٧٧) .

قوانين كلوديوس :

وكان اول هذه القوانين يقضي بان تتنازل الحكومة عن المبلغ الضئيل الذي كان لابد من دفعه نظير الحصول على الخصبة المقررة من الغلال شهريا ، وكان طبيعيا ان يهلك الشعيبون لهذا القانون ، وان يكروا اعمق العرفان والحب لكلوديوس ، وبالتالي ثبّيت مكانته في نفوسهم ، كي تناح له السيطرة على الموقف في روما ابان غيبة قيصر .

واما القانون الثاني فكان يهدف الى خلق اداة سياسية فعالة يمكن ان يستند اليها كلوديوس للوقوف في وجه معارضيه ، وتفصيل ذلك ان السناتو كان قد اصدر في عام ٦٤ ق . م . قرارا يقضي بحل الجمعيات التي شكلها المتعطلون في روما ووضعوها في خدمة السياسيين الراغبين في اثارة الشغب ، فتسبيب هذه الجمعيات بمارساتها الفوضوية في اضطراب شديد في حبل الامن بالعاصمة ، ولذلك تقرر الغاؤها .

وجاء كلوديوس بقانونه الثاني هذا فأباح تكوينها من جديد ، وعلى الفور تشكل عدد كبير منها ، وكلها لا تضم سوى الدهماء والعيid واسوا العناصر التي تميل الى اثارة الشغب واحلال الفوضى ، وغدت هذه الجمعيات اداة طيعة في قبضة كلوديوس يحركها كيف يشاء لصالحه الخاصة ، بل لعلنا نقول انها كانت اداة ارهاب في يده اخضع بها العاصمة لارادته .

وكان القانون الثالث يحرم طرد اي عضو من السناتو الا بعد اجراء فحص دقيق لحالته ، يقوم به الرقيبان (الكنسوران) ، وبعد حاكمته وصدور الحكم عليه بالادانة ، وهدف كلوديوس من هذا القانون كان دون شك ان يضمن لنفسه الاحتفاظ ببعضوية السناتو .

Plut , Cic., XXX, 1; Caes., XIV, 9; Heitland, Rom. Rep., III, pp. 140 ff. (٧٦)

Dio Cass., XXXVIII, 13 (٧٧)

واما القانون الرابع فكان يقضي بقصر حق فض جلسات الجمعية القبلية او الجمعية المثلية بحججة ظهور طالع نحس ، على الترابية والعرافين فقط دون بقية الحكم كما كان الحال ولا ريب ان هدف كلوديوس من استصدار هذا القانون كان الحيلولة دون اللجوء الى هذه الحجة لتعطيل مشروع القانون الذي تقدم به بعد ذلك في شهر فبراير (وربما في شهر مارس) من عام ٥٨ ق . م . لبني كل من اعدم او ي عدم مواطنا رومانيا دون حاكمة قانونية ، ولا شك انه كان يقصد نفي شيشيرون عدو قيصر اللدود ، الذي فشلت معه كل محاولات هذا الاخير لكسبه الى جانبه يوم عرض عليه عضوية لجنة الاراضي فرفضها^(٧٨) كما فشل في ابعاده عن روما يوم عرض عليه تعينه مساعد له يصحبه الى الخارج ، فرفض أيضا^(٧٩) .

وقد بذل شيشيرون كل ما في وسعه لمنع الموافقة على هذا القانون لادراته التام انه هو المقصود بالذات لنفيه خارج روما ، والحق انه لقي عطفا واضحا من النبلاء والفرسان والايطاليين عموما ، لكن احدا لم يجرؤ على القيام بعمل ايجابي لانقاذه ، ففي مصر بقواته المسلحة لايزال على مقربة من روما ، وكلوديوس موجود في قلبها ، وتحت امرته الجمعيات الفوضوية التي كانت كالعصابات المسلحة ، هذا الى جانب ان كراسوس كان يمقت شيشيرون مقتا عميقا .

اما بومبي - وهو صديق لشيشيرون - فقد احس بالخرج البالغ تجاه صديقه لعجزه عن مساعدته في هذا المأزق الذي وضع فيه ، للدرجة انه تبرأ من مقابلته ، واما قيصر فقد نصحه بمعادرة ايطاليا كلها ابقاء على حياته ، وحتى القنصلان لم يقوما بأي عمل على الاطلاق خوفا من قيصر وكلوديوس .

شيشيرون يغادر روما :

واحسن شيشيرون بان القانون سوف يصدر لا محالة ، فاستجاب لنصيحة صديقه كاتو وعدد اخر من احبائه المخلصين وخرج من روما بليل ، وفي الصباح التالي لخروجه ، ووفق على المشروع واصبح قانوننا واجب النفاذ . وبعد ايام معدودات استصدر كلوديوس قانونا اخر يحرم على شيشيرون الاقامة في اي مكان لا يبعد عن روما بمسافة تقل عن ثمانمائة كيلومتر^(٨٠) .

وهكذا خرج « ابو الوطن » من الوطن منفيا ، وصودرت ممتلكاته ودمرت بيته ، ويقي في منفاه حتى صيف عام ٥٧ ق . م . ثم استدعى للعودة على نحو ما سوف نرى .

Cic., ad Att., IX, 2 a. (٧٨)

Plut., Cic., XXX, 2—3.; Cic., ad Att., II, 18, 3. (٧٩)

Dio Cass., XXXVIII, 13, 3—17; Plut., Cic. XXX—XXXII; Po, p., XLVI; Cato, in or., XXXV; App., B.C., II, 15; (٨٠)

Cic., ad Att., II, 18—25; III, 15, 2.

اما كاتو- صديق شيشيرون وعدو الحلفاء الثلاثة - فكان قد انتخب لوظيفة الكوايستورية ، وانيطت به مهمة اقناع بطلة بيوس حاكم قبرص - وهو اخو الزمار ملك مصر بالتنازل عن الجزيرة للشعب الروماني بعد ان استصدر كلوديوس قانونا يقضي بضمها الى الممتلكات الرومانية ، وقد صدر هذا التكليف بقرار من الجمعية القبلية ، فلم يجد كاتو مفرًا من الاستجابة لقرار الشعب وقام بالمهمة ، وبذل عناء كبيرة في حصر كنوز الجزيرة ، ولم يعد الى روما قبل عام ٥٦ ق . م^(٨١) .

هكذا استصدر كلوديوس ما شاء من قرارات ، وهكذا ايضا اكره شيشيرون على الخروج من روما ، كما افلح في ابعد كاتو عنها ، فخلال له الجوتاما . واراد بعد ذلك ان يكافئ القنصلين نظير مساعداتها له ، وتنفيذها لاتفاقه مع قيسار كما ذكرنا ، فاستصدر قانونا باسناد حكم ولاية سوريا الى جابينيوس ، وحكم ولاية مقدونيا الى بيسو بعد انتهاء قنصليتها (عام ٥٧ ق . م) والحق انه اصبح صاحب الكلمة العليا في الدولة بعد رحيل قيسار بقواته .

وحدث ان شعر بومبي بندم شديد لتخليه عن صديقه شيشيرون وهو في محنته التي تحدّثنا عنها ، فبدا يفكر في استدعاءه من منفاه ، ولكن كلوريوس احس بذلك ، فما كان منه الا ان دبر هروب تيجرانيس الصغير ابن ملك ارمينيا الذي كان بومبي قد اودعه رهينة لدى البرابور فلامينيوس ، وقد اثار ذلك التدبير جابينيوس اشد الاثارة واعتبره تحديا صارخا لبومبي ، وأخذ كلوديوس عليه مؤاخذة عنيفة فاذا بهذا يكيل الاتهامات للقنصل ويحطّم شاراته الرسمية ، بل انه لم يتورع عن توجيه الاتهامات الى بومبي نفسه على الملا، فاثر هذا الاعتكاف في منزله حتى تنتهي تربيونية كلوديوس^(٨٢) .

وشهد عام ٥٧ ق . م . بعد انتهاء تربيونية كلوديوس - صراعا دمويا عنيفا بين كلوديوس وواحد من الترابنة الجدد ، وهو ميلو ، الذي لم يكن يقل عن سلفه جرأة وتبعحا ، فانتهز بومبي هذه الفرصة وشجعه على مواجهة عنف كلوديوس بعنف مثله ، فاذا بالدماء تسيل ، بين انصار التربيون الحالي والتربيون السابق ، في شوارع العاصمة وسوقها العامة^(٨٣) .

عودة شيشيرون :

كذلك شهد نفس العام استدعاء شيشيرون من منفاه ، فقد كان احد القنصلين - وهو ليتولوس

(٨١) كان هدف كلوديوس هو ابعاد كاتو عن روما ، بعد ان نهى شيشيرون حاجتها ، ولذلك كلف هو كاتر القيام بالمهمة ، لكن كاتر رفض ، فاستصدر كلوديوس من الجمعية القبلية قرارا تكتيمه ، وما لم يستطع كاتو الا ان يستجيب لرغبة الشعب الممثلة في قرار الجمعية القبلية Cf. Plut., Cat. minor, XXXIV—XL; Dio Cass., XXXIX, 22—23; C A H IX,p. 527, Hietland, Rom. Rep., III, pp.

150 ff

Plut., Pomp., XLVIII—XLIX, Dio Cass., XXXVIII, 30 (٨٢)

Dio Cass., XXXIX, 6—8. (٨٣)

سبنث - واحد الترابنة الجدد - وهو سستيوس - صديقين حميين لشيشيرون ، وكان بومبي يريد ان يعود صديقه شيشيرون من المنفى ، ولذلك زار جنده المسرحين في كابوا ، ودعاهم لمساعدته اذا لزم الامر ، ثم تقدم سبنث الى السناتو بمشروع قانون يقضي بالسماح لشيشيرون بالعودة من المنفى ، فوافق اعضاؤه بالاجماع باستثناء كلوديوس وحده بطبيعة الحال ، وبرغم كل التهديدات التي اطلقها كلوديوس ، وبرغم كل اعمال العنف والشغب التي دبرها ، فقد عاد شيشيرون الى روما واستقبل فيها استقبلا حافلا^(٨٤).

واثر عودته ببضعة ايام ، نزلت بروما ازمة غلال شديدة ، دفعت الجموع الى التظاهر حول السناتو وتهديد اعصابه بالقتل واحراق المباني العامة ، فتقدم شيشيرون الى المجلس بمشروع قانون يقضي بتعيين بومبي مشرفا على التموين لسنوات خمس ، مع منحه سلطة بروقنصالية تعطيه حق الرقابة على الاسواق وعلى تجارة القمح في جميع ارجاء الامبراطورية وكذلك سلطة شراء اي كميات من الغلال ، مع توفير السفن اللازمة لنقلها الى روما ، وقد وافق السناتو على المشروع وصدر به قانون من الجمعية المثلوية^(٨٥) ، وعلى اثر ذلك زار بومبي بنفسه صقلية وسردينيا وولاية افريقيا ، وجمع كميات هائلة من القمح ، ثم نقلها الى روما فقضى على الازمة سريعا^(٨٦).

مؤتمر لوكا :

الواقع ان التحالف الثلاثي بدأ يتتصدّع بعد خروج قيصر الى ولايته ، ذلك ان كراسوس كان يتطلع الى الظفر لنفسه بمجد عسكري كالذى ظفر به قيصر في بلاد الغال ، كما ملأت نفسه الغيرة من السلطات التي منحت لبومبي لتخليص روما من ازمة الغلال ، فأحس بأنه الطرف المهموم في التحالف ، ونافس بومبي منافسة شديدة للفوز بهمة اعادة بطليموس الزمار الى عرشه في الاسكندرية بعد ان بُلِّغَ الى روما هاربا من شعبه الذي سخط عليه اشد السخط لتنازله عن جزيرة قبرص للروماني . وهكذا بدأت الموجة تتسع بين كراسوس وبومبي ، كذلك كان بومبي غير مرتاح لقيصر وتصرفاته ولا سيما بعد ان ورطه معه في عملية ابعاد شيشيرون عن روما .

على هذا النحو بدأت نذر الاختطار تجتمع في العاصمة ، واحس قيصر بأن التحالف بينه وبين زميليه يوشك ان ينهار ، فدعاهما للجتماع به في مدينة لوكا الواقعة في شمال انزوريا على الحدود الجنوبيّة لولاية بلاد الغال القرية (جنوب الالب) وقد استجاب كلاهما له وسافرا اليه يصحبهما عدد كبير من اعضاء مجلس السناتو ، وكان ذلك في شهر ابريل عام ٥٦ ق . م .

& Plut., Cic., XXXIII: Cic., ad Att., IV; Liv., Ept., CIV. (٨٤)

Cic., ad Att., IV,1; Dio Cass., XXXIX. (٨٥)

Plut., Pl., p., L. (٨٦)

وفي هذا المؤتمر الذي جمع الرجال الثلاثة تم التفاهم بينهم على رأب الصدع الذي أصاب تحالفهم ، واتفقوا على أن يرشح بومبيي وكراوسوس نفسها لقنصلية عام ٥٥ ق . م وبعد انتهاء عام القنصلية يتولى بومبيي حكم ولايتي إسبانيا (القاصية والدانية) خمسة أعوام ، ويتولى كراوسوس حكم ولاية سوريا لخمسة أعوام كذلك ، أما بالنسبة لقيصر فقد اتفقوا على أن يمدد له حكمه في بلاد الغال خمس سنوات أيضا^(٨٧) .

بومبيي يحتوي شيشيرون :

كان شقيق شيشيرون - وهو المدعو كوييتوس ، يعمل مساعدًا لبومبيي في مهمة إنقاذ روما من أزمة القمع التي نزلت بها ، وقد شهد معه مؤتمر لوكا ، وفي أثناء عودتها إلى روما قال بومبيي لكونتيوس أنه تعهد لخليفه باقناع شيشيرون بالكف عن المعارضة الشديدة التي يمارسها ضد سياسة الحلف ، وطلب إليه أن يحذر أخاه من مغبة الاستمرار في مسلكه هذا ، وإن يفهمه أن اعادته من المنفى لم تتم إلا بعد الحصول على موافقة قيصر الذي اشترط إلا بهاجم شيشيرون تبريعاته^(٨٨) .

وابلغ كوييتوس أخاه كل ما دار بينه وبين بومبيي من حديث ، فأدرك شيشيرون أن هذا الحديث كان بمثابة تحذير له ، كما أصبح واضحًا له أن سياسة المعارضة التي يسلكها سوف تعيده إلى المنفى مرة أخرى ، فإذا به يتحول إلى نصير للحلف بل يصبح من أقوى أنصاره ، وإذا هو يلقي في السناتور (في شهر يونيو من عام ٥٦ ق . م) خطبة باللغة القوية ضد محاولة إرسال قائد آخر يتولى بدل قيصر قيادة القوات الرومانية في محاربة الغال^(٨٩) . وعندما قدم للمحاكمة كل من فاتينيوس صنيعة قيصر وجابينيوس صنيعة بومبيي في عام ٥٤ ق . م انبرى شيشيرون للدفاع عنها .

هكذا انقلب شيشيرون على عقبيه ، واعطى ظهره للبلاء الذين طالما شاركهم الدفاع عن النظام الجمهوري ، وتلك كانت نقطة الضعف في أخلاق شيشيرون ، لكنه برر مسلكه البعض هذا في بعض رسائله التي تناط بالحزن والمرارة والأسى على تردي الأوضاع السياسية في الدولة ، وتفيد بالتنديد بالبلاء الذين ينتهجون أشد الابتهاج لاصطراعه مع رجال الحلف الثلاثي ، ثم لا يحركون ساكنا لمساعدته حين تنزل به النازل على أيدي هؤلاء الرجال^(٩٠) .

App , V.C., II, 17. Doi Cass XXXIX, 27, Plut , Caes , XXI, Po.p , Li, Cato , inor, XLI; Crass , XIV. (٨٧)

Cic., ad Fam , I, 9, 8—12 (٨٨)

Cic , ad Q. frat , II, 6, 2 (٨٩)

Cic , ad Fam., I, 9, 10, ad Att , IV, 3, 2 (٩٠)

وقد كافأ قيصر شيشرون على مسلكه الجديد هذا ، فأبدى تقديره لمواهبه النادرة العظيمة ، واستجاب لكل طلباته وتوصياته وفي مقدمتها تعين شقيقه كويتوس مساعدًا له^(٩١) .

بومبي وكراسوس قنصلان للمرة الثانية :

وصل بومبي وكراسوس الى روما بعد انقضاء موعد الترشيح للقنصلية ، لكنهما دبرا الامر لصالحهما ولم يعدما الوسيلة فقد استطاعا اقناع بعض الترابنة بتأجيل عملية الانتخابات وعدم اجرائهما في موعدها لظهور طالع نحس ، وتم ذلك فعلاً وبدأ عام ٥٥ ق . م . دون انتخاب القنصلين الجديدين ، وتم تعين حاكم مؤقت لاجراء الانتخابات ، وبناء على ذلك اصبح في وسع بومبي وكراسوس ان يرشحا نفسيهما للمنصب واجريت الانتخابات فظفر كلاهما بمنصب القنصلية ولكن بعد اعمال العنف التي براها ضد مرشح ثالث من اعدائهم حتى لقد اضطر الى الانسحاب من المعركة وما ان اعتلى كل منها منصبه حتى عملًا معاً على شغل معظم المناصب الاخرى في الدولة بانصارهما ونجحا في ذلك اللهم الا اذا استثنينا اثنين من الترابنة فقط^(٩٢) .

وبعد ذلك تقدم احد الترابنة الماليين لها وهو المدعو تريبيونيوس بمشروع قانون ينص على اسناد الولايات التي اتفق عليها في مؤتمر لوكا لكل من بومبي وكراسوس ووفق عليه ثم استصدرها مجموعة اخرى من القوانين التي تهدف في ظاهرها الى الاصلاح العام ، وفي حقيقتها الى كسر شوكة الارستقراطيين والسناتو^(٩٣) .

وبانتهاء عام ٥٥ ق . م . انتهت قنصلية بومبي وكراسوس الثانية ، وكان المفترض بعد ذلك ان تبدأ مدة كل منها بوصفه بروقنسلا ، ويتجه مباشرة الى ولايته غير ان بومبي لم يغادر روما وانما عنه اثنين من مساعديه في الذهاب الى ولايته - وهي اسبانيا كلها ، وبقي هو رابضاً على ابواب العاصمة ليقرب سير الامور .

ويعتبر هذا التصرف تحدياً صارخاً للعرف السائد ، لم يحدث ان قام به مثله اي قنصل سابق حتى هذه اللحظة ، ومع ذلك فان بومبي استطاع تبريره بأنه مكلف بالاشراف على تعيين روما بالقمع ، ولم تنته بعد المدة المعطاة له للقيام بهذه المهمة ، ثم انه ايضاً لم يستكمل حشد القوات اللازمة لاسبانيا . . .

Cic., ad Q. Frat., II, 10, 4, 5. (٩١)

Dio Cass., XXXIX, 27—32; App., B C., II, 17; Plut., Cato ,inor, XLI—XLII, Crass., XV. (٩٢)

Plut., Pomp , Lii; Crass., XV, 5, App , B.C., II, 18, Cic., ad Att , VII, 716 (٩٣)

C A H. IX,p 615,p.618 (٩٤)

بيد ان هذه الامور التي تعلل بها لم تكون خافية على النبلاء ، والذي حدث هو ان بومبي لم ينتقل اطلاقا الى ولايته واكتفى بوجود مساعديه هناك . . . لقد سلك مسلكا بالغ الخطورة نستطيع ان نرى فيه انتقالا من النظام الجمهوري الى نظام حكم الفرد الذي يقيم في العاصمة بينما يقوم نوابه ومساعدوه بحكم الولايات باسمه .

وشهد العام التالي (٥٤ ق . م) احداثا اخرى شديدة الخطورة فقد انتشرت الفوضى بصورة تفوق كل الحدود واضطربت شعون العاصمة اضطرابا هائلا لدرجة ان العام انتهى ايضا دون انتخاب قنصلين جديدين للعام الذي يليه واسعى حينذاك ان بومبي هو الذي دبر ذلك كله لانه يريد ان يعلن نفسه دكتاتورا^(٩٥) .

وفي نفس العام توفيت يوليا ابنة قيصر وزوجة حليفه بومبي فكانت تلك الوفاة ايدانا بانتهاء رابطة الود بين الحليفين المتنافسين اللذين كان ذلك منها يرقب تصرفات زميله بمنتهى الحذر والشك وسرعان ما احتمم النزاع بين انصار الرجلين^(٩٦) . وقد حاول قيصر من جانبه ان يصل من قبل الود الذي كان يربط بينهما ، وذلك بالاصمار اليه من جديد ، لكن بومبي رفض عرض الزواج من حفيدة اخت قيصر^(٩٧) . وتزوج في العام التالي مباشرة (٥٣ ق . م) من سيدة تنتمي الى اسرة نبيلة^(٩٨) .

وهكذا اتضحت تماما احساس بومبي تجاه قيصر ، واستبان رغبته في الاعراض عنه والتقرب من النبلاء لعلهم يدعمون موقفه تجاه حليفه الخطير .

وبعد - فقد كان عام ٥٤ ق . م عام مناورات سياسية واضحة الاتجاه ، وعام اضطراب شديد ادى الى انتهاء دون انتخاب حكام جدد لعام ٥٣ ق . م باستثناء ترابة العامة . واخذ الاضطراب يتزايد والشغب يتفاقم مع مرور الايام والشهر حتى لقد اقبل شهر يوليو من عام ٥٣ ق . م دون ان تناح الفرصة لانتخاب الحكام ، واما م هذا الموقف لم يجد السناتو مفرأ من استدعاء بومبي الذي كان واقفا على ابواب روما بقواته العسكرية ، والسماح له بدخول العاصمة ، ومنحه سلطة استثنائية لانقاذ الموقف ورد الامور الى نصابها .

Cic , ad Q. Frat., III,8,4—6 (٩٥)

Plut , Pomp., LIII (٩٦)

Suet, Div Jul., XXVII,1 (٩٧)

Dio Cass., XL, 51,3. (٩٨)

كانت هذه السيدة هي كورنيليا اسية ميبلوس سكير .

وقد استجاب بومبي على الفور ، وقام بالمهمة على خير وجه ، فأجريت عملية الانتخابات لقنصلين جديدين ، كما اتخذت الاجراءات اللازمة لانتخاب الحكام الاخرين للمدة الباقية من عام ٥٣ ق . م^(٩٩) .

وهكذا تغير مسلك بومبي تغييراً جذرياً ، وبدا كمنفذ للسناتو والنبلاء ، وكان ذلك يعني هز دعائمه تحالفه مع قيصر هزا عنينا فضلاً عما سبق ذكره من اصهار بومبي الى احدى الاسر النبيلة ورفضه اصهار الى حليفه قيصر .

اما الخليف الثالث ، ونعني به كراسوس - فقد لقي مصرعه في منتصف عام ٥٣ ق . م اثناء قتاله مع البارثين (١٠٠) ، فكان ذلك هو القضاء المبرم على التحالف الثلاثي ، واصبح وقوع الصراع السافر بين بومبي وقيصر امراً لا مفر منه .

وانتهى عام ٥٣ ق . م . ايضاً دون ان يتم انتخاب الحكام الجدد للعام التالي ، وانخذلت الفوضى تستشرى في كافة انحاء المدينة حتى غدت كالحمى الخبيثة التي لا يهدأ لها اوار ، وحوالي منتصف يناير من عام ٥٢ ق . م وقع اشتباك دموي عنيف بين عصابات كلوديوس وعصابات ميلو المسلحة ، ولقي كلوديوس مصرعه فاذا باتباعه ورجال عصاباته يعيشون في العاصمة فساداً ، ويشعرون النيران في دار السناتو ، فيما كان من رجاله الا ان اجتمعوا على الفور ، واصدرروا « قرارهم النهائي » (S.C.u) للحاكم المؤقت وللترابنة ولبومبي بالعمل على حماية الدولة ، مع منح هذا الاخير الحق في حشد قوات جديدة يضيفها الى قواته التي بامرته^(١٠١) .

بومبي قنصلاً منفرداً :

هكذا أصبح بومبي سيد الموقف وصاحب الكلمة العليا ، وكانت روما لا تزال بغير حكام^(١٠٢) ، ومع ذلك فان بومبي لم يحاول اتخاذ اي خطوات لاجراء ، الانتخابات ، وبدأ الناس يتحدثون عن اقامته دكتاتورا او انتخابه هو وقيصر قنصلين ، وكلا الامرين لا يريح النبلاء ، وانهيا استقرار الرأي على

(٩٩) ٢٠—١٩، Plut., Pomp., Liv, App., B C , II.

(١٠٠) كان كراسوس - عقلي قاتل تريبيونوس الذي صدر في اوائل عام ٥٥ ق . م - قد اعطى القنصلين بعد انتهاء عام قنصليتها ، حق اعلان الحرب وابرام السلام وجمع القوات العسكرية من ايطاليا ومن الولايات ، وبناء على ذلك جمع ما استطاع جمهه من فرق عسكرية وتوجه بها الى سوريا وقد عقد العزم على ان ينجز نياريا ليطرد لعنه محمد عسكري ، لكنه هي هرية قاسية وقتل وبعده رحال حيث

(١٠١) ٤٩—٥٠، I, App., B.C., II, 21—Dio Cass.

(١٠٢) لم تجر انتخابات الحكام لعام ٥٢ ق . م سُبّ تمدد اعمال العنف والشعب وسعك الدباء بين عصائب العدوين اللذين كلوديوس وميلو ، فلما انتهى عام ٥٣ ق . م دون اجراء انتخابات عبروا حاجي مؤقتاً Interrex

الأخذ باقتراح بيبولوس وكانت باختيار بومبي قنصلًا منفرداً (Cinsul Sobus) ، فذلك أهون الشرور من وجهة نظر النبلاء الذين يرون في قيصر أكبر خطر عليهم وعلى النظام الجمهوري كله ، والذين يعرفون تماماً أن بومبي إذا كان يجب لنفسه المجد إلا أنه لم يحاول أن يستند إلى السلطات الاستثنائية التي منحت له كي يقيم نفسه دكتوراً .

وانتخب بومبي قنصلًا منفرداً ، وهو أمر لم يسبق أن حدث على الأطلاق ، ويعتبر خرقاً فاضحاً للدستور الجمهوري الذي يقرر مبدأ الأزدواج لا في وظيفة القنصلية وحدها ، وإنما في جميع الوظائف العامة الكبيرة ، فضلاً عن أن بومبي لم يكن قد امضى فترة السنوات العشر التي ينبغي أن تنتهي على شغله لوظيفة القنصلية في عام ٥٥ ق.م.

^٣ هكذا غداً بومبي حاكم روما المطلق دون منازع ، وبموافقة النبلاء ورضاهما ، لكنه لم يلبث أن اشرك معه في القنصلية والد زوجته سكبيو^(١٠٣) .

وعلم قيصر وهو في غاله ان انصاره من الترابنة يدعون الى اقامته زميلاً لبومبي في القنصلية فطلب اليهم الكف عن ذلك حتى يتنهى من فتح بلاد الغال ، لكنه اوصاهم بالعمل على استصدار قانون يسمح له بترشيح نفسه للقنصلية بعد انتهاء بروقنصليته وهو لا يزال غائباً عن روما . . . وبذلك يعني فتح بلاد الغال كلها ، وتنقضي ايضاً مدة السنوات العشر التي لا بد من انقضائها على قنصليته السابقة . وقد استجاب له الترابنة فقدموا مشروع قانون يحقق له رغباته ووافق بومبي عليه ، وايده شيشيريون^(١٠٤) ، ففوق عليه نهايتها واصبح قانوننا نافذاً^(١٠٥) .

بومبي يضع العرائيل لقيصر :

أصدر بومبي قانونين هامين لوقف اعمال العنف والشغب التي لقيت منها روما اشد البلاء ، ولمكافحة دائرة الرشوة في الانتخابات^(١٠٦) ، كما اصدر قانوناً خاصاً بتنظيم تولي الحكم في الولايات^(١٠٧) ، وكان هذا القانون يقضي بـلا يتولى القنصل حكم الولايات إلا بعد انقضاء خمس سنوات على انتهاء عام قنصليتهم ، وتطبيقاً لهذا القانون يصبح في وسع السناتو تعين من يشاء حاكماً على ولايتي قيصر بمجرد انتهاء حكمه فيها في أول شهر مارس عام ٤٩ ق.م ، بينما كان القانون

Plut., Pomp., LIV—LV, App., B.C., II, 23; Dio Cass., XL, 50,3—51. (١٠٣)

Cic., ad Fam., VI, 6, 5; ad Att., VII, 1, 4 (١٠٤)

App., B.C., II, 25; Liv., Epit., 107 (١٠٥)

Dio Cass., XL, 52; Plut., Pomp., LV. (١٠٦)

dio Cass., XL, 56, 1. (١٠٧)

القديم^(١٠٨) لا يسمح بان يخلفه احد في الولاياتين الا بعد انقضاء عام ٤٩ ق . م بتمامه حين يكون قد ظفر بالقضائية وفقا للخطة التي رسمها لنفسه ، وبالتالي يصبح في مأمن من تعریض نفسه للمحاكمة . اما اذا طبق القانون الجديد الذي اصدره بومبي فان قيصر يصبح في مأزق شديد ، فاما ان ينفي نفسه بنفسه بحيث لا يذهب الى العاصمة ويتعرض للمحاكمة ، واما ان يحمل سلاحه ويزحف على روما بقواته .

ونحن لا نستبعد ان يكون بومبي قد استصدر هذا القانون ليوقع قيصر في اشد المحرج ولسوف نرى خصوم قيصر يستخدمون هذا القانون صده ولسوف نرى ان بومبي كان راضيا مرتاحا لذلك .

والغريب ان السناتور قرر ان يسند الى بومبي حكم ولاية اسبانيا لخمسة اعوام عقب انتهاء قضائه مباشرة ، ولم ينجلي بومبي من قبول هذا القرار مع انه يهدى القانون الذي استصدره هو بنفسه^(١٠٩) . وظل بومبي يمارس حكم اسبانيا دون ان يتقلل اليها ، وانما ظل مقينا في ايطاليا واكتفى بانابة مساعديه عنه كما فعل في بروقنصليته السابقة .

ونحن نلاحظ هنا ان السناتو قد منح بومبي سلطة بروقنصالية لخمس سنوات ابتداء من عام ٥٢ ق . م ، بينما لم يمدد بروقنصالية قيصر لمدة مماثلة وهذا يعني ان توازن القوى بين الرجلين سوف يختل ، وهو توازن اتفقا على الحفاظ عليه في لوكا . وتصرف السناتور على هذا النحو يدل دالة قاطعة على مدى التقارب الشديد الذي حدث بين بومبي والسناتو ، وهو تقارب يعني حدوث تباعد شديد بين بومبي وقيصر ، مع ان هذا الاخير كان في ميسى الحاجة لتعاون بومبي معه كي يطيل له مدة بروقنصليته في احدى ولايته ولو لبضعة اشهر فقط حتى يتم انتخابه قنصلا في غيبته كما كان يريد .

وعلى اية حال ، فان الهدوء الذي ساد روما في خلال عام ٥٢ ق . م ، سمح باجراء الانتخابات لحكام عام ٥١ ق . م ، فظفر بالقضائية روفوس الفقيه القانوني البارز ، الذي عمل على تفادي الازمة التي توشك ان تنزل بروما ، وزميل له يدعى ماركيللوس ، وكان رجلا نبيلا خلوقا ، يتمسك بالنظام الجمهوري الى اقصى الحدود ، لكنه كان في نفس الوقت متھمسا الى درجة الاندفاع ، تنقصه الايجابية في التصرف^(١١٠) .

وبعد ان غضي في تحليل الاحداث التي شهدتها روما في خلال عامي ٥١ ، ٥٠ ق . م ، وانتهت

(١٠٨) كان القابون القديم هو ذلك الذي استصدره جايوس حراكوس ، وكان يقصى بأن يعلن السناتور سوريا اسمى الولاياتين المسؤول حكمها الى القنصليين الجديدين ، وذلك قبل انتخابهما ومعرفة شخصيتها ، وكذلك كان يعم على الثراة استخدام الفيتو ضد قرار السناتور بعد صدوره في هذا الصدد .

Dio Cass., XL,56,2; Tacit., Ann.,III,28,1 (١٠٩)

Liv., Epit., 108; Dio Cass., XL,58 (١١٠)

بانهيار التحالف الثلاثي تماماً ثم اشتعال نيران الحرب الاهلية ينبغي ان نتناول - في ايجاز - الاجماد العسكرية التي حققها قيصر في حروبه ، والتي اوغرت عليه صدر بومبي ، كما اوغرت صدور النبلاء الاستقراطيين وجعلتهم يرتدون خوفاً مما يتحمل ان يعمله عند عودته الى روما ، فباتوا يدبرون امورهم لتجريدہ من كل سلطان ومن اية قوة عسكرية .

فتح بلاد الغال (١١١) :

ذكرنا ان قانون فاتينيوس الذي صدر في خلال قنصلية قيصر عام ٥٩ ق . م . كان يقضي بمنحه حكم ولاية غاله الفربية (جنوب الالب) والليريا ، وان السناتو اضاف اليه حكم ولاية غاله البعيدة (عبر الالب) ايضاً ، وقد اختار قيصر ولاية غاله الفربية ليكون وهو فيها قريباً من روما ، فضلاً عن كونها مليئة بالرجال الاشداء الصالحين للتجنيد ، اما غاله البعيدة فكانت تقع وراء جبال الالب وتشمل المنطقة الساحلية حتى جبال البرانس ، وكذلك المنطقة الواقعة بين الالب ونهر الرون حتى بحيرة جنيف شمالاً ، ومن هذه المنطقة شق قيصر حملاته على بقية بلاد الغال التي نعرفها اليوم باسم فرنسا .

الهلفيتي :

فلما انتهى عام قنصلية قيصر لم يربح روما الى ولاياته ، وانما بقي بها ليحشد القوات اللازمة له كما قال ، الواقع انه كان يريد البقاء في العاصمة حتى يستتصدر كلوديوس التشرفات التي اتفق معه عليها ، لكنه اضطر الى التحرك حوالي منتصف شهر مارس عام ٥٨ ق . م حين وصل الى علمه ان بعض قبائل الغال قد احتشدت على الضفة اليمنى من نهر الرون تجاه جنيف الحديثة ، فأسرع الى مكان بالقرب من هذه المدينة ، وعرف ان هذه القبائل - وعلى رأسها الهلفيتي - قد خربت ديارها واحرقـت منازلها ، ت يريد ان تهجر موطنها نتيجة لضغط قبائل الجerman علىـها ، وأنها لا تطلب اكـثر من السماح لها بالمرور عبر الولاية الرومانية ، لكن قيصر رفض ذلك لأن استقرار هذه القبائل في بلاد الغال سوف

(١١١) ان المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن هذا الموضوع هو ما كتبه قيصر نفسه عن الحرب العالمية واسمه « مذكريات عن حرب العالم » (Gallico Commentarii de Dello) وتقع هذه المذكرات في سعة اجزاء ، ثم قام احد صباطه - وهو المدعو اوتوس هرتیوس - فاضاف لها جزءاً ثالثاً ، ويتناول قيصر في كل جزء من اجزاء مذكراته السعة احداث عام واحد من اعوام القتال ، بينما يتناول الحroe الثامن الذي اضافه هرتیوس احداث عامي ٥١ ، ٥٠ ق . م . وهناك اجماع على ان المذكرات جاءت متندة الى التقارير السنوية التي كان قيصر يرسلها كل عام الى السناتو . وقد استخدم قيصر في مذكراته اسلوباً اديباً رومانيا ورصينا يدل على انه كان صاحب كفاية ادبية كما كان صاحب كفاية عسكرية رفيعة ، وقد التزم جانب الامانة في سرد الواقع ، لكنه كان درد شك يبرر تصريحاته بدلوانع تحتاج الى التحقيق ، والتدقيق ، كما يدلوا انه كان يبالغ في اعداد القوات المعادية .

اما اهم المراتج في موضوع حرب الغال فهي :

T. Rice Holmes, Caesar's Conquest of Gaul, 1911; C.A.H , IX, pp. 550 — 573, O. Dorgan, Roman Gaul. (1953).

يؤدي الى اضطرابات وقلائل شديدة تهدد مركز روما في المنطقة كلها ، وامام هذا الرفض جأ الهمفيتي الى قبائل السيكوانى - وهم شعب مستقل - فسمحوا لهم بالمرور ، غير ان قيصر عزم على منعهم بالقوة وساعده على ذلك انهم كانوا قد عبروا نهر الساعون ، ودخلوا اراضي قبائل (الايدوى) الموالين للرومان ، وقد استنجد هؤلاء بقيصر فأسرع اليهم بجيشه واشتباك مع جيش قبائل الهمفيتي وانزل بهم هزيمة قاسية اضطروا معها الى الفرار من وجهه ، لكنه اتصل بمن بقي منهم على قيد الحياة وسمح لبعضهم بالعودة الى موطنهم الاصلي كما سمح للبعض الآخر بالاقامة في بلاد الايدوى .

الجرمان :

وقد ابتهجت قبائل الغال الوسطى لهذا النصر الذي احرزه قيصر ، وأرسلت اليه وفودها لتهنئته ، ولطلب منه المساعدة ضد زعيم قبائل الجerman المقيمين عبر الراين - وهو المدعو آريوفيسنوس (Ariovistus) - الذي اعان قبيلة السيكوانى على التخلص من سيادة الايدوى عليهم ، وكان ازدياد قوة هذا الزعيم الجermanي قد بدأ يقلق قيصر ويثير الذعر في بلاد الغال كلها .

لذا قرر قيصر معالجة الموقف بحزم ، ولما لم يكن يستطيع محاربته لأن السناتور كان قد اعترف به ملكاً وصديقاً للرومان في عام ٥٩ ق . م . بايعاز من قيصر نفسه ، فإنه جأ الى مفاوضته وطلب منه وقف هجرة الجerman من وراء الراين ، والكف عن سوء معاملة جيرانه . ولكن اريوفيسنوس رفض هذه المطالب واعتبرها انذاراً له ، نقر قيصر الهجوم بقواته على الفور ، وقد فزع جنوده فرعاً شديداً من مواجهة الجerman ، لكنه سيطر عليهم سريعاً وبث في قلوبهم السكينة ، ثم دارت المعركة في شهر سبتمبر عام ٥٨ ق . م ، فنزلت بالجرمان هزيمة منكرة ، وتمكن زعيمهم من الفرار مع بعض رجاله الى وطنهم شرق الراين ، ومع ذلك فقد ظلل حتى وفاته في اوائل عام ٥٣ ق . م مصدر قلق لقيصر^(١١٢) .

البلجيك :

آثار تدخل قيصر في بلاد الغال الوسطى تذكر زعماء القبائل الاخرى ، فعقدوا العزم على مقاومته ، وكان اكثر هذه القبائل تذمراً هم البلجيك الذين قرروا الوقوف في وجهه وصدّه . وكان هو قد امضى الشتاء في ولاية غاله القريبة ، فلما سمع بما ينتويه البلجيك ، عزّز جيشه بفرقتين جديدتين وزحف به شمالاً قبل ان يستكمل البلجيك استعدادهم ، فاستسلمت له احدى قبائلهم بل وامتدّه بالمساعدة . وبعد ذلك عهد الى حلفائه الايدوى بتحريك اراضي الاعداء ، فقاموا بذلك خير قيام حتى تزقت

قوات هؤلاء الاعداء ولاذوا بالفرار ، وما لبثت القبائل الاخرى ان استسلمت ، واما يذكر هنا ان كراسوس الصغير ابن كراسوس عضو التحالف الثلاثي قد قام بدور بارز في هذه المخوب^(١١٣) ، واعتقد الجميع ان بلاد الغال الشمالية والوسطى قد خضعت تماما لقيصر ، لكن قيصر نفسه كان يدرك تماما ان السيادة الرومانية الكاملة على بلاد الغال لم ترتكز بعد على قواعد واسس مكينة .

الفينيقي :

وجاء عام ٥٦ ق . م . فذهب قيصر للجتماع بحليفه في مؤتمر لوكا على نحو ما اوضحنا ، وبعد انتهاء المؤتمر قفل راجعا ، وعبر الألب من جديد ليواجه اول ثورة اشعلها الغال ضد الرومان : فقد تقضى البريتاني والنورماندي تحالفهم معه ويدأوا يؤججون نيران الثورة ضد روما وقيصرها . وتزعمت هذه الثورة قبائل الفينيقي (Veneti) ^(١١٤) وهي قبائل بحرية كانت تسيطر على التجارة مع بريطانيا ، فأحسوا بأن الرومان ينافسونهم في هذا المجال ، وأثار مخاوفهم الشديدة قيام كراسوس الصغير برحلة استطلاعية الى شواطئ بريطانيا الجنوبيه ، فإذا بهم يلقون القبض على بعض الضباط الرومان ، وانضم اليهم في هذه الثورة بعد ذلك النورماندي والبريتاني .

وتولى قيصر بنفسه امر الفينيقي والبريتاني ، بينما اوكل الى مساعديه مهمة اخضاع البريتاني والنورماندي وصد الغزو التي يعتزم الجerman القيام بها ، ولكي يضمن لنفسه النصر ، ويقضي على القوة البحرية للفينيقي ، فإنه امضى شتاء عام ٥٦/٥٧ ق . م . في بناء اسطول يقف امام اسطول اعدائه ، وب مجرد وصول هذا الاسطول الى ساحة المعركة ونجاحه في تحطيم بعض سفن العدو ، استسلم الفينيقي والبريتاني ، وسيطر الرومان على البحر من خليج سكاي الى القناال الانجليزي ، ثم انزل قيصر عقابه الصارم بأعدائه ، فأعدم زعماءهم ، وبايع الاهالي في سوق النخاسة ، ثم توجه الى غاله القرية ليقضي شتاء عام ٥٥/٥٦ ق . م .

الجرمان مرة أخرى :

وفي نفس هذا الشتاء عبرت قبيلتان من قبائل الجerman نهر الراين الادف في اعداد هائلة ، قدرها قيصر في مذكرة عن حرب الغال بنحو ٤٣٠٠٠ نسمة ، ثم تقدم فريق من هؤلاء حتى اصبح على مقربة من مدينة لييج الحديثة ، فخشى قيصر ان تنضم هذه الجموع الحاشدة الى الغال الناقمين عليه

(١١٣) استسلمت لكراسوس الصغير قبائل النورماندي والبريتاني

(١١٤) كانت هذه القبائل قد استسلمت له بعد انتصاره على البلجيك

وعلى روما ، فأسرع في عام ٥٥ ق . م إلى غاليا كوماتا^(١١٥) واجتمع بزعمائها وحصل منهم على مساعدات كثيرة ، ثم بدأ زحفه نحو هذه الآلاف المؤلفة من الجerman ، وفي الطريق جاءه سفراً هم يطلبون السماح لهم بالبقاء في بلاد الغال ، لكنه رفض ذلك واقتصر أن يعطيهم موطنًا خاصًا شرقي نهر الراين ، وانتهت المفاوضات في ذلك الموضوع بهذه قصيرة لدراسة اقتراح قيصر .

وفي أثناء المدنة واصل قيصر زحفه شمالاً نحو قواطه الرئيسية ، وفجأة تعرض بعض فرسانه المتقدمين لهجمات بعض الوحدات الجermanية ، فبادر زعماء الجerman في اليوم التالي مباشرةً بالذهاب إلى قيصر والاعتذار له عما حدث ، لكن قيصر لم يطمئن إليهم ، فالقى القبض عليهم ثم أسرع إلى قواتهم التي كانت تنتظر عودتهم ، فأخذها على غرة وبدد شملها ، فولت الأدبار وجد هو في أثرها حتى لحق بها ، ودارت مجزرة مروعة ، أهلك فيها قيصر ٤٠٠٠٠ من هؤلاء الجerman الفارين ، بينما لم يتكتبدهم غير عدد قليل من الجرحي كما يقول في مذكراته^(١١٦) . وبعد ذلك عبر الراين إلى قبائل الجerman الأخرى ليلقي في قلوب رجالها الرعب حتى لا يفكروا في غزو بلاد الغال ، فأنزل بهم الهزيمة ، ثم قفل راجعاً إلى غالاه بعد أن حطم الجسر الذي كان قد شيده ليعبر عليه الراين .

غزو بريطانيا : (١١٧)

بعد عودة قيصر كان صيف عام ٥٥ ق م قد انتهى تقريباً ، وهو موسم القتال ، لكنه برغم ذلك جهز حملة صغيرة للاستطلاع في بريطانيا تمهدًا لغزو كبيرة يقوم بها في العام التالي .

والواقع أن غزو بريطانيا بحجة منع اهلها من معاونة الغال الناقمين على الرومان ، لم يكن ضروريًا : فبعد هزيمة الفينيقي اصبح الرومان أصحاب السيادة على البحر من خليج بسكاي إلى القناة الانجليزي ، ثم ان مد الحدود الرومانية إلى ما وراء أرض القارة الأوروبية كان يلقي على روما تبعات جسام دون أن تفيد شيئاً سياسياً أو عسكرياً . لكن الذي لاشك فيه هو أن غزو بريطانيا كان يخدم أهداف قيصر الشخصية ، فقد بولغ كثيراً فيها تحويله من ثروات ، ولم تكن حتى ذلك الوقت معروفة للرومان ، وبالتالي فإن غزوها سوف يكون له وقع أكبر من وقع فتوحاته في بلاد الغال ، بل إن هذا الغزو سوف يعطي على الانتصارات التي احرزها بومبي في الشرق .

(١١٥) أي بلاد الغال التي يسكنها أصحاب الشعور الطويلة ، وهي منطقة مسيحة تشمل على وجه التقرير فرنسا وسويسرا وبلجيكا .

(١١٦) لقد ارتكب قيصر جريمة وحشية مروعة بقتل كل هذه الآلاف المؤلفة دون داع ولولا سيما بعد أن اعتذر له زعماؤهم ، وقد حاول أن يبرر فعلته هذه في مذكراته فقال أنه كان يريد تمثيل الرومان حاطر هذه الجموع الخائدة من المهاجرين . لكن ما انتزفه كان دون شك عملاً غير إنساني يuali كل الاعراض . وقد انتهت حصمه كاتب هذه المفرضة مهاجده مهاجنة بالله العنف والقصوة ، غير أن السناتور بابا لما قاله كانوا وأصدر قراراً باقامة صلوات الشكر للفترة طيلة عشرين يوماً .

(١١٧) مع مراجع فتح بلاد الغال انظر أيضاً :

T. Rice Holmes, Ancient Britain and the Invasion of Caesar, 1935.

هذا نرجح ان السبب الحقيقي لغزو بريطانيا كان رغبة قيصر الشخصية في الظفر بانتصارات تفوق انتصارات يومي ، وبالتالي تكسبه هالة من المجد والجلال لم يكتسب مثلها احد قبله ، وتعطيه في نفوس الرومان مكانة اسمى وارفع من مكانته كل منافسيه وحساده .

وفي أغسطس من عام ٥٥ ق . م حشد اسطوله وعبر به مضيق دوفر ، ونزل بساحل كنت بعد مقاومة لقيها من البريطانيين ، لكن زعماء المنطقة اتوه مستسلمين ، فرأى الاكتفاء بذلك لضآلته قواته وسوء الاحوال الجوية وعاد الى القارة في شهر سبتمبر واخذ يستعد لغزوة ثانية تحقق له اهدافه اذ ان غزوه الاول هذه لم تتحقق شيئا يذكر .

تدل الاستعدادات التي قام بها قيصر في شتاء عام ٥٤ / ٥٥ ق . م على انه كان يريد فتح كل الجزيرة البريطانية^(١١٨) ، فلما اقراها ابحر بقوة ضخمة من المشاة والفرسان^(١١٩) ونزل على ساحل كنت دون مقاومة هذه المرة ، ثم رحفل غربا والتقوى بقواته كانت عند كانتربوري (Canterbury) وأنزل بها هزيمة قاسية ، لكن عاصفة هبت على الساحل ودمرت عددا كبيرا من سفن اسطوله فأثر العودة لانقاذ السفن الباقية بسحبها الى البر ، وقد استغرقت هذه العملية وقتا اتاح للبريطانيين تنظيم صفوفهم .

وبعد عودته من هذه المهمة التقى بالقائد البريطاني الذي امره اهل الجزيرة على جيشهم ، فأنزل به هزيمة فادحة وفرض عليه تسليم عدد من الرهائن ودفع الجزية للرومان ، ثم قفل راجعا الى بلاد الغال دون ان يترك وراءه حاميات في بريطانيا ويبدو ان السبب في ذلك كان ما بلغ مسامعه من انباء عن تجدد الاضطرابات في بلاد الغال .

والواقع ان بلاد الغال بدأت تموح بالثورة في خريف عام ٥٤ ق . م ، نتيجة لضيقتهم بالسيطرة الرومانية ، ولعمليات السلب والاستنزاف والاستعباد التي نزلت بهم لكن قيصر افلح في القضاء على هذه الثورة التي استمرت مشتعلة الاوار حتى اغسطس من عام ٥١ ق . م .

وقضى قيصر بعد ذلك بقية هذا العام ثم صيف العام الذي يليه في تنظيم فتوحاته ومحاولة استرضاء الغال ليذعنوا للحكم الروماني ويتقبلوه غير ناقمين ولا سخطين ، فوق في ذلك توفيقا كبيرا ، وساعد السلام في بلاد الغال سنين عديدة .

وبعد فليس من شك في ان غزو بلاد الغال كان امرا بالغ الاهمية بالنسبة لروما ولقيصر ولتلك البلاد نفسها . . . فقد انقذها من القبائل الجرمانية المتوجهة ، فنعمت بالهدوء ، وانتشرت في انحائها

(١١٨) مما تمحور الاشارة اليه هنا ان كراسوس كان في نفس الوقت بعد العدة لعز ومارثا دون اي مبرر ، اللهم الا رغبته في الحصول على مجده عسكري يطأول به بعد قيصر .

(١١٩) كانت الحملة تضم حوالي ثلاثة ألف مقاتل من المشاة والقavalry من فرسان العمال .

الحضارة الرومانية . ولقد اضاف قيصر - بفتحه بلاد الغال - للممتلكات الرومانية ارضا فسيحة خصبة هي التي نعرفها اليوم باسم فرنسا ، والتي اعتبرت جوهرة غالبية بل اغلى جوهرة في تاج الامبراطورية الرومانية ، وأدت الى مضاعفة موارد الدولة وازدياد قوتها ، وان كان الدفاع عن حدود الراين قد فرض على روما اعباء ضخمة .

اما بالنسبة لقيصر فان فتح بلاد الغال اتاح له تنمية مواهبه العسكرية ، كما اتاح له بناء جيش كبير حسن التدريب يدين له وحده بالولاء ، هذا فضلا عن الاموال الطائلة التي حصل عليها من الاسلاب والغنائم والتي مكتنفها فيما بعد من كسب الانصار والمؤيدين في روما في النضال السياسي والعسكري الذي سوف يخوضه .

ولقد امضى قيصر تسع سنوات في هذه الحروب - مع انه لم يكن يتمتع بصحة جيدة - لتحقيق الاهداف التي رسمها لنفسه ، وهي السيطرة الكاملة على شئون الدولة ومن ثم اقامة حكومة حازمة رشيدة تقبض على ناصية الامور تستطيع ان تحقق المصالح الوطنية العليا ، واذا كان سلا قد واته الفرصة فاحتفظ في اقتناصها لعنفه وبطشه الشدیدين واذا كان يومي قد اخفق ايضا لقلة خبرته السياسية فاذما هو يسرح قواته العسكرية عقب عودته من فتوحاته فان يوليوس قيصر لم يدع الفرصة تفلت من قبضته واما اغتنمها على الفور .

وعاد قيصر الى غاله القريبة في صيف عام ٥٠ ق . م بعد ان استقرت الامور تماما في بلاد الغال كلها ليكون على مقرية من مجريات الاحداث في روما . . .

احداث عام ٥١ ق . م .

ونعود الان - بعد الفراغ من الحديث عن فتوحات قيصر - الى مواصلة تحليل الاحداث التي شهدتها روما في عام ٥١ ق . م ، وهو العام الذي ظفر به بالقنصلية كل من روفوس وماركيللوس كما ذكرنا ، ثم شهد التحول الواضح في موقف يومي من قيصر .

لقد طلب قيصر في بداية عام ٥١ ق . م ، تمديد فترة بروقنصليته في ولايته او في احداها كي يتم انتخابه قنصلا في غيابه ، ولكن السناتور رفض هذا الطلب ، ولم يحاول يومي ان يتدخل في هذا الموضوع^(١٢٠) مع ان قيصر كان يتوقع منه المعاونة - كما ذكرنا - لتحقيق هذا الهدف . وكان موقف يومي السلبي هذا بمثابة ذريعة تذرع بها النبلاء لمواصلة العمل على كسر شوكة قيصر ، حتى اذا عاد الى روما لم يستطع ان يقف في وجههم .

App . D.C., II,25; Plut., Caes., SSIX,1. (١٢٠)

وتقىد القنصل ماركيللوس للسناتو باقتراح يقضى بانهاء بروقنصلية قيصر قبل موعد انتهائها الرسمي ، وهو اول مارس من عام ٤٩ ق . م . متذرعاً بأن الحرب في بلاد الغال قد انتهت ، ومن حق رجال جيشه ان يسرحوا ، وباقتراح آخر يقضى بعدم السماح له بترشيح نفسه للقنصلية الا اذا حضر هو شخصياً ، لأن القانون المعمول به والذي استصدره بومبي في هذا الصدد قد نسخ قانون الترابية العشرة الذي تحدثنا عنه . ولكن بعض ترابية عام ٥١ ق م . عارضوا هذا الاقتراح كما عارضه زميل ماركيللوس في القنصلية - وهو روفوس - مستنداً الى عدم جواز استدعاء اي حاكم من ولايته قبل انتهاء مدة حكمه منها طالما لم يرتكب اي عمل يستدعي هذا الاستدعاء^(١٢١) . بل لقد عارض الاقتراح بومبي نفسه^(١٢٢) لاحقاً في قيصر كما قد يبدو ، واغا لأن اقتراح ماركيللوس كان يعني الغاء القانون الذي استصدره بومبي وكراسوس بتمديد بروقنصلية قيصر خمس سنوات أخرى ، وربما ايضاً لأن رأي بومبي لم يكن قد استقر بعد على ما ينوي عمله تجاه قيصر .

وفي اواخر سبتمبر من عام ٥١ ق . م اصدر السناتو قراراً بتكليف قنصل عام ٥٠ ق . م بأن يعرضوا عليه موضوع الولايات القنصلية في اول مارس من عام قنصليتها ، على ان يصدر المجلس فيه قراراً سريعاً ، وقد وافق على هذا القرار دون اعتراض الترابية .

لكن بعض هؤلاء الترابية اعترضوا في آخر شهر سبتمبر على ثلاثة قرارات اصدرها السناتو بناء على اقتراحات ماركيللوس ، وكان احداً منها يلزم السناتو بالنظر في حق جند قيصر في التسريع والمكافأة ، والثاني يقضي بأن استخدام حق الفيتو ضد اي قرار للسناتو يعتبر امراً ضد مصالح الدولة ، والثالث يقضي بجعل كيليكيما (وهي الولاية القنصلية التي كان يحكمها شيشيرون مع قبرص) ولاية برإيتورية (لا قنصلية) مع ثمانية ولايات اخرى^(١٢٣) .

ولا شك ان القرار الاول كان يهدف الى احداث وقعة بين قيصر وجندوده اذ يغريهم بالطالة بالتسريع والمكافأة ، وقيصر يريدهم بسلامتهم تحت امرته ، اما الثاني فكان هدفه حرمان الترابية من حقوقهم في الفيتو وبذلك يستطيع خصوم قيصر ان يفعلوا به ما يشاؤون دون خوف من اي اعتراض ، واما الثالث فكان يعطي السناتو الحق في مناقشة حكم قيصر في ولايته لأن ولايات روما كلها كانت اربع عشرة ولاية وقد أصبحت تسع منها برإيتورية وبقيت خمس فقط قنصلية وهي غالباً بقسيمهما واسبانيا بقسيمهما وسوريا ، وقد اسندت اسبانيا منذ وقت قريب لبومبي فلم يعد باقيا الا غالى بقسيمهما (وهذه

Dio Cass., XL, 59, 1 — 2; Liv., Epit., 108; Hirt., B.G., VIII, 53. (١٢١)

Cic., ad Att., VIII, 3, 3. (١٢٢)

(١٢٣) كانت هذه الولايات هي : صقلية وسردينيا ومعها كورسيكا ومقدونيا ومعها آثينا وأسيا وأفريقيا وكريت وبينيا وقرطاجنة .

يحكمها قيصر) وسوريا ، وطبقا للقرار ينبغي ان تثار مسألة هذه الولايات الثلاث في اول مارس عام ٥٠ ق . م . والهدف بطبيعة الحال هو تعين خلف لقيصر في ولايته وبالتالي يصبح ملزما بالتخلي عنها مجرد انتهاء مدة بروقنصليته وقبل ان يتم انتخابه فنصلا وحينذاك يصبح امام خيارين لا ثالث لها فاما ان يعود الى روما مواطنا عاديا بلا قوات عسكرية فتتاح الفرصة لخصومه من النبلاء كي يقدمونه للمحاكمة وبالتالي لا يتولى منصب القنصلية الذي يتطلع اليه واما ان يذهب بنفسه الى المنفى ليتجنب هذا الموقف .

هكذا وضحت الاتجاهات السياسية في روما من جانب النبلاء وجانب بومبي ايضا ضد قيصر ، افهل فات هؤلاء ان رجلا من طرره وهو السياسي الداهية ، والقائد المظفر الذي يتحكم في جيش ضخم مدرب ، يمكن ان يسلم نفسه الى خصومه بهذه السهولة ليقضوا على مستقبله السياسي قضاء مبرما وهل فاتهم ايضا انه لن يتتردد - دفاعا عن النفس - في ان يسلك المסלك ، الذي سبقه اليه سلا !!

واراد السناتور ان يقرر على الفور تعين خليفة لقيصر ، لكن بومبي احجم عن المشاركة في هذه المسألة قبل ان تنتهي بروقنصليبة قيصر في اول مارس ، وعندئذ - كما قال - يكون في حل من التصرف^(١٢٤) . ولعله اراد بهذا الموقف ان يبدو منصفا فيحافظ على وعده لقيصر بأن يظل في ولايته حتى تنتهي مدة بروقنصليته تطبيقا للقانون الذي استصدره هو وحليفه كراسوس في هذا الصدد ، لكنه في نفس الوقت كان على استبعاد للتصرف بعد ذلك وفق ما تمله المصلحة العامة ، وهذا يوحى - دون شك - بأنه لن يسمح لقيصر بتولي القنصلية مرة اخرى . . . لقد كشف بومبي عن نيته دون ادنى مواربة وافهم النبلاء - ضمنا - انهم يستطيعون الاعتماد عليه في وقتهم ضد قيصر .

أحداث عام ٥٠ ق . م .

جرت انتخابات التريبونية لعام ٥٠ ق . م . فإذا بمعظم الفائزين من انصار قيصر ، لكن تبين ان واحدا منهم كان مرتشيا ، فالغى انتخابه ، وظفر بمكانه شاب يدعى كوريو (Curio^(١٢٥)) ، وكان هذا الشاب متلافا غارقا في الديون لاخلاقه ، ومعروفا بعدائه الشديد لقيصر - كما كان والده قبله - وتشيعه الواضح للنبلاء ، وقد دخل المعركة الانتخابية معلنا انه من انصار الحزب الارستقراطي ، لكن قيصر استطاع ان يشتريه ويحتجزه الى صفه حين سدد عنه كل ديونه^(١٢٦) .

App., B.C , II,26, Hirt., B.G , VIII,53 (١٢٤)

(١٢٥) كان والد هذا الشاب عدوا لقيصر ، وكان من حطاء روما المبررين ، وكل ذلك كان كوريونه .

Dio Cass., XL, 60; App., B.C.,II26, Plut., Pomp., LVIII,1. (١٢٦)

ولم يكشف كوريو عن تحوله هذا دفعة واحدة^(١٢٧) . بل انه ظل يخالط البلاء ويشاركهم السخط على قيصر ومهاجته بعنف شديد ، حتى اذا ولى منصبه رسميا ، تقدم بعدد من مشروعات القوانين^(١٢٨) ، وهو على يقين تام من ان السناتور وبومبي لن يوافقوا عليها ، لما حدث ذلك اعلن عن غضبه من البلاء والجمهوريين ، وجاهر بتأييده لقيصر واعترافه على القرارات التي اصدرها السناتور ضده .

وانتخب للقنصلية لعام ٥٠ ق . م . كل من جايوس ماركيللوس (ابن عم فنصل سنة ٥١ ق . م) ولوكيوس باوللوس ، وكانا من ألد خصوم قيصر ، لكنه استطاع ان يستقطب هذا الاخير - كما فعل مع كوريو من قبل - وان يشتري ذمته^(١٢٩) .

وفي اول مارس اصدر السناتور قرارا بانهاء بروقنصالية قيصر اعتبارا من اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر ، لكن كوريو استخدم الفيتو ضد هذا القرار لما ينطوي عليه من عسف ظاهر ، ولأنه يكشف عن رغبة البلاء الجاحمة في ان يترك قيصر ولايته قبل اول مارس عام ٤٩ ق . م .

وأمام هذا الاعراض ، اعاد السناتور النظر في الموضوع مرة ثانية في شهر ابريل ، فقام كوريو بمناورة سياسية بارعة ليوهم البلاء بأنه من اقوى انصار الجمهورية ، وان كل هدفه هو تحرير السناتور من الشعور بالخوف من القوة العسكرية ، فأعلن ان خير سبيل للخروج من هذه الازمة التي تهدد سلامنة الدولة من جراء تنافس البروقنصليين - بومبي وقيصر - مع وجود قوات عسكرية كبيرة تحت امرة كل منها ، هو ان يقوما في وقت واحد بالتخلی عن بروقنصليتها وتسریع قوانهما .

وقبيل اقتراح كوريو هذا بتهليل كبير من الجماهير التي احست من صاحبها الاخلاص الشديد للجمهورية والعمل على ما فيه مصلحتها غير مبال بما سوف يجره عليه موقفه هذا من نفقة بومبي وقيصر معا ، بل ان الكثيرين من البلاء فرحا بالاقتراح ورجحوا به اشد الترحيب لأنهم رأوا فيه ما يجنب الدولة شرور اندلاع حرب اهلية بين بومبي وقيصر .

ولقد حاول بومبي ان يحيط هذا الاقتراح بينما مضى كوريو الى حد المطالبة باصدار قرار باعتبار بومبي وقيصر عدوين للدولة اذا امتنعوا عن تنفيذ قرار تخليهما عن سلطتها وتسریع جيشهما ، ومع ذلك

Dio Cass., XL, 16—62 (١٢٧)

(١٢٨) كانت مشروعات القوانين التي تقدم بها تهدف الى اظهاره مظهر الرعيم الشعبي ، فبعضها ما كان يقصي توزيع القطاعات زراعية على الفقراء ، وممتلكات ينافي بيع الفتح لم بأسعار زينة جدا .

(١٢٩) كان كابيلوس من اصدقاء شيشرون ، وقد وصلنا بمجموعة من الرسائل التي بعث بها لصديقته شيشرون .

فإن أعضاء السناتو، وهم يتوقعون كل الشر من قيصر، لم يوافقوا على اقتراح كوريو، الذي قد ينفذه بومبي بعد الموافقة عليه، بينما يرفض قيصر تنفيذه^(١٣٠)، فيصبح صاحب القوة الوحيدة في الدولة.

وكانت مدة تريبونية كوريو- صديق قيصر والساهر على رعاية مصالحه وتحقيق أهدافه - تنتهي في التاسع من شهر ديسمبر عام ٥٠ ق. م ، واجريت انتخابات القنصلية لعام ٤٩ ق. م ، فظفر بها عدوان من ألد اعداء قيصر ، هما لوكيوس لنتولوس ، وجايوس ماركيللوس (ابن عم قنصل عام ٥٠ ق. م . وسميه) ، وبدا أن الموقف كله يتحول ضد قيصر ، لكن كان له صديق حميم ، هو الكوايستور ماركوس انطونيوس ، وفي وسع هذا الصديق اذا واتته الفرصة ان يقوم بنفس دور كوريو ، ولذلك عمل قيصر كل ما في وسعه ليظفر انطونيوس بأحد مناصب التريبونية لعام ٤٩ ق. م .^(١٣١)

وكان قيصر قد ارسل فرقتين من جيشه الى روما في خريف عام ٥٠ ق. م . استجابة لطلب السناتو الذي قرر ارسالهما الى بيبولوس حاكم سوريا ، الذي كان يتوقع غزو البارثين لولايته . لكن خطر هؤلاء زال واستبقى السناتو الفرقتين في كابوا طوال الشتاء ، واذا بضباط هاتين الفرقتين يروجون الشائعات بأن جنود قيصر قد ضاقوا بتصرفاته ذرعا ، وانهم يخشون ان يعلن نفسه ملكا على روما ، وانهم يودون الانضمام الى جيش بومبي والعمل تحت قيادته .

وصدق بومبي هذه الشائعات ، بل انها ملأته غرورا ، فأهمل تجنيد المزيد من القوات^(١٣٢) ، بل لعلها ايضا كانت السبب في عزوفه عن الوصول الى حل وسط مع قيصر وتفضيله الدخول معه في حرب اهلية . هذا بينما كان قيصر يعمل جاهدا على تنظيم قواته في ولايته ، وتوزيع وحداتها بين قادته^(١٣٣) .

ووصل شيشيريون الى ايطاليا في اواخر شهر نوفمبر من عام ٥٠ ق. م ، ولم يدخل روما انتظارا لقرار السناتو بمنحة حق اقامة موكب نصر لنفسه ، لكنه عرف تماما دقائق الموقف بين قيصر وبومبي كما يتضح من مجموعة الرسائل التي بعث بها الى صديقه اتيكوس ، وهي تدل على انه توقع الا يقبل قيصر الا الحل الذي يرضيه ، والا فلا مفر من نشوب حرب اهلية يجب تفاديتها بكل السبيل^(١٣٤) . ويقول المؤرخ بلوتارخوس في هذا الصدد ان شيشيريون حاول بكل جهده الاصلاح والتوفيق بين القائدين

App., B.C., II, 27—29; Plut., Pomp., LVIII. (١٣٠)

Plut., Anton., V, 1—2; Hirt., B.G., VIII, 50 (١٣١)

App., B.C., II, 29; Dio Cass., XL, 65—66; Plut., Caes., XXIX, 3—5; Pomp., LVII, 4—5. (١٣٢)

Hirt., B.G., VIII, 51—55. (١٣٣)

Cic., ad Att., VII, 2—9 (١٣٤)

حتى لا يشعلان نيران حرب اهلية مدمرة تكتوي روما بنيرانها ، ثم ينصب المتصر فيها نفسه طاغية على الدولة^(١٣٥) .

وبعد - فان الطلبات التي تقدم بها قيصر يريد موافقة السناتو عليها ، لم تكن تجافي العرف او تجافي الدستور : فبقاؤه في ولايته حتى اخر عام ٤٩ ق . م كان متفقا مع قانون جايوس جراوكوس الذي كان لا يزال ساريا حين منح قيصر البروتنصلية ، وحين مددت هذه البروتنصلية خمس سنوات أخرى . وانتخابه قنصلا وهو غائب عن روما لم يكن امرا جديدا ولا غريبا ، فقد سبق ان انتخب ماريوس للقنصلية غيابيا عدة مرات ، كما صدر قانون خاص باعفاء قيصر من ترشيح نفسه حضوريا وقد وافق بومبي نفسه على هذا القانون ، فلما صدر قانون جديد يحتم حضور المرشح كي يقدم ترشيحه بنفسه ، وافق بومبي على استثناء قيصر من ذلك .

هذا فضلا عن ان قيصر قد تولى الوظائف العامة جيما طبقا للقانون الذي ينظم تولي هذه الوظائف ، ورغبتة في تولي القنصلية ثانية كانت رغبة متفقة مع هذا القانون لأنه في عام ٤٨ ق . م تكون قد انقضت عشر سنوات على انتهاء قنصليته الاولى في عام ٥٩ ق . م

هكذا يتبيّن لنا ان الاوضاع كلها كانت سليمة ولا غبار عليها من الناحية القانونية بالنسبة لمطالب قيصر . اما بالنسبة لبومبي - عضو التحالف الثلاثي مع قيصر ثم خصمه الاكبر الان - فنحن نعرف انه تولى قنصليته الاولى في ام ٧٠ ق . م . دون ان يكون قد تولى قبل ذلك الكوايسطورية والبرابطورية ، وتلك مخالفة صريحة لقانون تنظيم تولي الوظائف العامة . وحين تولى القنصلية الثالثة مرة في عام ٥٢ ق . م لم تكن قد انتهت السنوات العشر التي لابد من انقضائها على قنصليته الثانية التي تولاه في عام ٥٥ ق . م .

اما النباء والسناتو فاذا كانوا قد منحوا بومبي قنصلية عام ٧٠ ق . م . مرغمين كارهين ، فإن السناتو هو الذي خرق القواعد الدستورية ، وهو الذي قوض دعائم النظام الجمهوري حين اقام بومبي قنصلا وحيدا في عام ٥٢ ق . م . كما وله في نفس هذا العام حكم ولايتي اسبانيا قبل انقضاء السنوات الخمس التي فرضها قانون اصدره بومبي نفسه .

فأي فرق شاسع بين الرجلين ! وان طلب قيصر ليبدو لنا غاية في التواضع اذا هو قورن بما منح لبومبي من استثناءات كانت كلها خروجا صارخا على الدستور والتقاليد معا .

من هنا يتضح ان معارضته بومبي والمهوريين لقيصر لم تكن بداع من الحفاظ على القواعد الدستورية او الروح الجمهورية ، وإنما كان الدافع هو الخوف والذعر من عودة قيصر الى روما فنصلا ، الامر الذي يتيح له السيطرة الكاملة على كل مقدرات الدولة ، وبالتالي تتلاشى كل سلطة لبومبي ، وكل سيطرة للسناتو . . فالصراع كله كان دائرا حول السلطة ومن يظفر بها .

وبذل قيصر كل جهد ممكن للحصول على اكبر تأييد لطلبه برغم غيابه عن روما ، فانفق الاموال عن سعة لتقديم الهدايا والقروض ، ونجحت جهوده الى حد كبير في اجتذاب الكثيرين من رجال السياسة ومن اعضاء السناتو بل حتى من انصار بومبي . ويقول شيشرون في احد خطاباته ان كل المجرمين والشبان الفاسدين ودهماء المدينة قد وقفوا جميعا الى جانب قيصر ، وكذلك كل ترابته العامة وكل المفلسين .

ولم يهمل قيصر الجانب المعنوي في دعايته فبث عمالءه في صفوف عامة الشعب يفهمونهم استعداده للتفاهم ورغبة الاكيدة ف يتفادى وقوع حرب اهلية ، ولعله - كما سرني - كان صادقا في ذلك . وأصبح الشعب يعتبر قيصر بطلا المتظر ، يتوقع عودته ليرد الحياة الى الجماعيات الشعبية التي وأدها بومبي حين كان فنصلا منفردا^(١٣٦) .

واجتمع السناتو في اول ديسمبر من عام ٥٠ ق . م .^(١٣٧) . ووقف القنصل ماركيللوس يكيل التهم للكيصر ، ويصفه بأنه قاطع طريق ، ويطلب الى السناتو اعتباره عدوا للدولة اذا لم يتخلى عن ولايته وجشه ، لكن كوريو تدخل وقال ان الخل العادل الوحيد هو ان يتخل كل من بومبي وقيصر عن بروقنصليتها ويسرعا جيشيهما ، وتقديم فعلا باقتراح رسمي بذلك وطلب التصويت عليه ، وكانت المفاجأة حين وافق المجلس على الاقتراح بأغلبية ٣٧٠ صوتا ضد ٢٢ صوتا فقط^(١٣٨) . وهنا لم يجد تربيون العامة فورنيوس - الموالى لبومبي - الا ان يعرض على القرار فأبطله .

وراجت شائعات كاذبة تقول ان قيصر بدأ زحفه على روما ، فانتهز ماركيللوس الفرصة ، وقام بمحاولة اخيرة ليرغم السناتو ، على الوقوف في وجهه وقفه حازمة ، فاقترح اسناد قيادة الفرقتين المرابطتين في كابوا الى بومبي ليتولى الدفاع عن روما وایطاليا ، لكن كوريو اعترض على هذا الاقتراح وابطله . وهنا اعلن ماركيللوس انه سوف يتصدى بنفسه لهذا الخطر الذي يهدد الدولة بوصفه

Plut., Caes., XXIX., 2 — 3 ; Pomp., LVIII; Cic., ad Att., 3,3; App., B.C., II, 30 (١٣٦)

C.A.H., IX,p.635 (١٣٧)

App., B.C., II, 30; Plut., Pomp., LVIII, 3 — 5 (١٣٨)

قصلا^(١٣٩) ، وذهب مع القنصليين المرشحين للعام التالي مقابلة بومبي خارج روما ، وفوضوه مهمة الدفاع عن الجمهورية ضد قيصر .

ويرغم ان السناتو لم يوافق على منحه هذا التفويض غير الدستوري الا ان بومبي قبله واستجاب لاداء المهمة^(١٤٠) ، وهكذا بدا كأنه هو الباديء بالعدوان ، واتاح لقيصر فرصة القاء تبعة اشتعال نيران الحرب الاهلية على كاهله ، ولاسيما حين اعلن انه على استعداد للتفاهم ، وقبول اي حل وسط ، وانه لا يمانع في تسريح جيشه اذا سرح بومبي جيشه . لكن قوات بومبي كانت عند ذاك قد طوقت اسوار العاصمة فشلت يد السناتو ، ولم يستمع رجاله الى ما ابداه قيصر من رغبة في التفاهم والقاء السلاح .

قيصر ييريء نفسه قبل الزحف على روما :

حين زار شيشيرون بومبي في العاشر من شهر ديسمبر ، اكد له هذا ان الحرب واقعة لا محالة^(١٤١) . وفي خطاب من شيشيرون لصديقه اتيكوس يقول ان بومبي ادرك ان فئات الشعب الروماني لن تهب للدفاع عن الدستور ، فالسناتو لم يجرؤ على اتخاذ قرار حاسم ، والفرسان لا تعنيهم غير مصالحهم المالية ، وكلهم يؤيدون قيصر ،اما المزارعون فكل همهم هو تحجنب نشوب حرب اهلية بأي ثمن ، و موقفهم هذا هو موقف شيشيرون نفسه^(١٤٢) .

وفي اواخر ديسمبر ذهب كوريو الى قيصر واطلعله على مجريات الاحداث في روما ، واستحوذه على الزحف بقواته نحوها على الفور ، لكن قيصر آثر التمهل وحمل كوريو رسالة الى السناتو يعرض فيها حللا وسطا للأزمة ، لكن السناتو كان قد وقع تحت تأثير المنطرفين من رجاله الذين اعتقدوا ان عرض قيصر اغا دفعه اليه شعوره بضعف مركزه^(١٤٣) ، وكذلك اعتقاد بومبي ايضا ، اذ صدق - كما قلنا - الشائعات التي روتها بعض ضباط قيصر في كابوا ، ومن ثم اصبح واضحا انه لا يريد التفاهم مع خصميه وانه يصر على محاربته^(١٤٤) .

Plut., Pomp., LXIII, 6; App., B.C., II, 31. (١٣٩)

App., Loc. cit.; Plut., Pomp., LVIII, 6 — LIX; Dio Cass., XL, 64, 2; 66. (١٤٠)

Cic., ad Att., VII, 4. (١٤١)

Cic., loc. cit., 5, 4; 715 (١٤٢)

App., B.C., II, 32; Plut., Caes., XXXI, 1; Caes., B.C., I, 7 — 8 (١٤٣)

Cic., Ad Att., VII, 8. (١٤٤)

وكان رسالة قيصر التي حملها كوريو إلى السناتو تتضمن دفاعه عن نفسه وعن حقوق الشعب الروماني ، وقد أسهب في الحديث عن الخدمات التي أداها للدولة ، ثم عرض في نهايتها استعداده للتخلص من بروقنصليته وان يسرح جيشه شريطة ان يفعل بومبي نفس الشيء وفي نفس الوقت ، والا فانه سوف يجد نفسه مضطراً للدفاع عن حقوقه وحقوق الشعب^(١٤٥) .

واجتمع السناتو في اول يناير من عام ٤٩ ق . م ، وتنبأ على اعضائه رسالة قيصر ، ولكن دون جدوى ، واخيراً قدم اقتراحًا بانهاء بروقنصلية قيصر قبل يوم محدد ، فإذا رفض تنفيذ ذلك اعتبر عدواً للدولة ، لكن التريبونين انطونيوس ولونجينوس اعترضاً على هذا الاقتراح ، فغضب المتطرفون من رجال السناتو اشد الغضب وطردوا التريبونين من المجلس .

واخيراً وفي اليوم السابع من يناير اصدر السناتو «قراره النهائي» (S.C.V) الذي ينص على تخويل القنصلين والبرابتورس والبروقنصليين الموجودين في ايطاليا (يقصد القرار بومبي وشيشرون) ، تخويل هؤلاء جميعاً التصدي للخطر وحماية الدولة من الخطر الذي يوشك ان ينزل بها ، وهنا انسحب انطونيوس ولونجينوس واسرعاً ومعهما كوريو الى مقابلة قيصر لاخباره بكل ما حدث .

وهكذا وقع المحظور واندلعت نيران الحرب الاهلية بين بومبي وقيصر الذي اهاب مشاعر جنده اذ قدم اليهم الوفد الثلاثي الذي جاءه من روما فقصوا على الجندي ما حدث ، ثم اختلى هو بنفسه فترة قصيرة ليتخذ قراره وكان القرار هو اصدار اوامره للفرقه الثالثة عشرة بعبور نهر روبيكون الذي يفصل بين ولاية غاله الغربية وایطاليا^(١٤٦) .

وعلى هذا النحو بدأت الحرب الاهلية ، فهل كان قيصر هو المسئول عن اشعال نيرانها ؟ ام ان بومبي هو الذي يعتبر مسؤولاً عن ذلك ؟

لقد تعاقبت الازمات السياسية بسرعة مذهلة خلال عام ٥١ ، ٥٠ ق . م . ثم انتهت كما رأينا بذلك الموقف المتطرف الذي اتخذه رجال السناتو كما اخذه طبقة النبلاء الجمهوريين تجاه قيصر ، فلم يجد هذا بدأ من اصدار اوامره الى احدى فرقه العسكرية بعبور نهر روبيكون والزحف نحو روما :

وإذا كان قيصر هو الذي بدأ الحرب ، لكنه اضطر الى ذلك اضطراراً واكره عليه اكراماً ، وهؤلاء الذين اكرهوه على بدء الحرب لا بد ان يشاركونه المسئولية ويتحملوها معه .

App., B.C II, 32; Plut., Caes , XXX, Pomp., LIX; Caes., B.C., I, 9ff. (١٤٥)
Dio Cass., XLI, 3—4; Ppp., XXXI—XXXIII; Po., LiX; Anton , V—VI (١٤٦)

لقد ادعوا انهم اثنا اتخذوا موقفهم دفاعا عن النظم الدستورية وحفظا على النظام الجمهوري ، لكننا نراهم في ادعائهم هذا غير صادقين : لقد رفضوا باصرار كل الحلول الوسط التي عرضها قيصر كما ذكرنا ، واصرروا كل الاصرار على استدعاءه من ولايته قبل انتخابه قنصلا ، وكانت استجابته لهم تعني انهم وضعوه امام خيارين لا ثالث لها ، فاما ان يضحي بمستقبله السياسي او على قوله هو بكرامته (dignitas) لانه فور عودته كمواطن عادي لا سلطة له سوف يصبح هدفا لاتهاماتهم ، وبالتالي يقدم للمحاكمة ، واما الا يستجيب ويحافظ على كرامته ، وهذا يعني ان يتشق الحسام ليتحقق اهدافه بالقوة .

وقيصر بعد كل الاجماد التي حققتها بانتصاراته في بلاد الغال وفي بريطانيا ، وبعد كل السوابق التي شهدتها الدولة يوم استولى سلا على روما بالقوة ، ويوم فعل ركنا نفس الشيء ، نقول ان قيصر لم يكن من السذاجة بحيث يسلم نفسه لأعدائه دون عناء .

ولقد شرحنا من قبل كيف كانت مطالبات قيصر متواضعة وها سوابق عديدة ، بل وتستند احيانا على القوانين التي استصدرها مؤيدوه لصالحه ، بينما ظفر بومبي بمعظم ما ظفر به خرقا للدستور وعلى يد رجال السناتو انفسهم .

لكل ذلك نرى ان فتنة البلاء ، ومعها بومبي ، لم تكن في اصرارها على استدعاء قيصر من ولايته قبل انتهاء مدة بروبرانيوريته ، وفي تمسكها بـألا يرشع نفسه للقنصلية الا حضوريا ، لم تكن في الحقيقة تداف عن الدستور او عن النظام الجمهوري بقدر ما كانت تنفذ أحقادها ضده ، وبقدر ما كانت تعمل على اصطياده مجردا من كل قوة وسلطان لتفعل به ما تشاء .

ان السناتو نفسه هو الذي اقام بومبي قنصلا منفردا بذلك - دون شك - اعتداء صارخ على الدستور بقدر ما هو قتل لروح النظام الجمهوري ، والسناتو هو الذي اتخذ « قراره النهائي » ضد قيصر بحججة اعتدائها على الدستور ، وكان هذا القرار النهائي هو الذي اشعل هيب الحرب الاهلية .

ان مطالبات قيصر لم تكن غريبة ولا كانت شاذة بالقياس الى مطالبات بومبي ، وحسينا في هذا الصدد ان نشير الى القرار الذي صدر بتمدید مدة قيادة هذا الاخير في اسبانيا خمس سنوات اخرى .

وإذا كان قيصر قد عبر نهر الروبيكون على رأس جيشه زاحفا نحو روما ، فقد كان ذلك الرزحف - كما يقول هو - ضد السناتو الذي حالف بومبي ضده ، وضد جماعة الارستقراطيين المنقلبين الذين اتحدوا كلّمهم مرة ضد بومبي ومرة اخرى ضده هو وضد بومبي معا ، واحيرا ضده وحده بهدف القضاء عليه والتخلص منه .

لقد وضعوا قيصر في مركز بالغ الحرج ، تماما كما وضعوا سلا قبله في عام ٨٣ ق . م ، فاما ان يدفع عن نفسه ويحمي مستقبله ، واما ان يستسلم لجلاديه ، وليس من المعقول ان يسعى الى حتفه بظله ، وكان عليه ان يحرر نفسه ويحرر الشعب ايضا ، - كما قال هو - من ظعفان الاقليه^(١٤٧) .

ولوان السناتو استجاب لداعي العقل ، ووافق على عرض قيصر بتبني الخل الوسط - الذي ذكرناه - حين عرضه قيصر ، بحسب روما ويات الحرب الاهلية .. لقد كانت خصومهم مع قيصر ورغبتهم في القضاء عليه نهائيا هي هدفهم الاسمي الذي يعلو على مصلحة الدولة .

من ذلك يتبين لنا ان قيصر لا يمكن ان يكون مسؤولا عن اشغال نيران الحرب الاهلية بقدر ما كان اعداؤه مسؤولين عنها .

لقد كانت التطورات السياسية التي حدثت في خلال الاعوام القليلة التي سبقت الحرب الاهلية ، ارهاصا قويا بقرب نهاية النظام الجمهوري ، كما كانت مقدمات واضحة لنتائج حتمية لا بد ان تعقبها . ولكن الطبقة الاستقراطية عميت عن هذه الارهاصات وغفلت تلك المقدمات عن النتائج التي لا بد ان تأتي في اثرها ، ولم تر الا عداء لها لقيصر ووجوب الخلاص منه . ولو أنها كانت اوسع افقا ، واحسن تقديراللموقف ، واكثر شجاعة ، لكان في الوسع تحذب هذه الحرب الاهلية التي اتسع نطاقها فشملت كل حوض البحر الابيض المتوسط تقريبا ، والتي انتهت بمصرع بومبي غدرا في مصر ، ومن ثم انفرا قيصر بالسلطة المطلقة في الدولة الرومانية .

والواقع انه لم يعد باقيا من النظام الجمهوري الا اسمه فقط ، ولسوف ينمحى هذا الاسم ايضا حين ينجح اوغسطس في اقامة نظام حكم المواطن الاول .

* * *